

إسهام المدن في الثورة الجزائرية (1954-1962):

نحو منظور جديد

*The role of cities in the Algerian revolution (1954-1962):**For a new perspective*

د. مصطفى سعداوي*، مخبر التاريخ المحلي والذاكرة الجمعية والمقاربات الجديدة-جامعة البويرة
(الجزائر)

m.sadaoui@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2024 / 06 / 18 تاريخ القبول: 2024 / 10 / 25 تاريخ النشر: 2024 / 12 / 17

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على دور المدن الجزائرية إبان معركة التحرير (1954-1962)، هذا الدور الذي وإن بدا هامشيا مع بداية الثورة لأن الطبيعة المسلحة للكفاح ضد الاستعمار في هذه المرحلة اقتضت أن ينتقل مركز ثقله إلى الريف، بيد أنه عندما بلغ الكفاح المسلح درجته الحرجة، وحين أوان استدعاء أشكال جديدة من الكفاح سيما العمل الجماهيري، أخذ مركز الثقل المشار إليه يعود تدريجيا إلى المدينة، وأخذت هذه الأخيرة تستعيد معه دورها المركزي.

ومنه نخلص الى أن كل من المدينة والريف شكلتا أثناء الثورة ظاهرتين متعارضتين وموحدتين في آن واحد، بل إن تعارضهما كان سر تكاملهما، وتكاملها شرط فاعليتهما. وعلى الجملة لم تكن فاعلية المدينة كما الريف تكمن في ذات أي منهما وإنما في تكاملية العلاقة بينهما على وقع الديناميكية التاريخية.

كلمات مفتاحية: الثورة الجزائرية، المدن، الريف، الكفاح المسلح، العمل الجماهيري.

● مقدمة

كان انطلاق الثورة الجزائرية في الفاتح نوفمبر 1954 إيذاناً بانتقال مركز ثقل الكفاح ضد الاستعمار من عالم المدينة إلى عالم الريف. بعبارة أوضح، دلّ ذلك على بدء انكفاء المدن بعد فترة طويلة من قيادة النضال السياسي مقابل اكتساح الريف بكل عنفوان لمسرح الأحداث. هذه الحقيقة التي لا مشاحة فيها بوصفها معطى تاريخياً مجرداً أثارت جدلات حادة بخصوص فهمها وتأويلها. إذ بلور انطلاقاً منها فريقٌ من الدارسين (بل وحتى الفاعلين) طرحاً يسمّ سكان المدن بالنزعة الإصلاحية، ويزعم أن سكان الريف هم الفئة الثورية الوحيدة؛ فذهب "فانون" -على سبيل المثال لا الحصر- إلى أن "طبقة الفلاحين في البلاد المستعمرة هي الطبقة الثورية الوحيدة لأنها لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئاً بل تطمح أن تكسب بالثورة كل شيء..."¹. هذا بينما أثبت التاريخ -حسب فانون دائماً- أن برجوزية المدن مستعدة على الدوام لتقبل الحلول الوسطى، وهذا يسري كذلك على المثقفين الحضريين الذين -وبالرغم مما يصدر عنهم من جعجة لفظية وأقوال عنيفة- يركنون في آخر المطاف إلى أنصاف الحلول². غير بعيد عن هذا الرأي، يؤكد قائد الولاية الثانية التاريخية أن "أي ثورة حقيقية تريد البقاء والانتصار لابد أن تنطلق من الريف وليس من المدن، فالريف ميدان حرب العصابات... والريف كان وسيبقى منبع الأخلاق والشيم والتقاليد الأصيلة. وهو الذي احتمل أكثر من غيره حملات... الإبادة والتشريد والإهانة منذ غزو 1830. وبالتالي، فهو (من) مهد لقلب كفة التاريخ... واحتضن الثورة وسار بها إلى نهايتها المظفرة"³.

هكذا طرح كثيراً ما يستأنس بكتابات ابن خلدون التي لا تفتأ تُلح على أن "أهل البادية أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر"⁴، و"أن معاناة أهل الحضر للأحكام السلطانية تكسر من سورة بأسهم وتُذهب

¹ - يفسر فانون ذلك بكون "الفلاح المنبوذ الجائع هو الإنسان الذي يكتشف قبل غيره أن العنف وحده هو الوسيلة المجدية، إنه امرؤ ليس عنده حل وسط ولا مجال عنده للتسوية، والقوة هي وحدها التي تحدد - في رأيه - بقاء الاستعمار أو زواله".

انظر: فرانز فانون، معذبو الأرض، تر: السيدة منور، موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص 27.

² - المرجع نفسه، ص-ص: 26-27.

³ - على كافي، مذكرات الرئيس علي كافي، دار القصة، الجزائر، 2011، ص-ص: 93-94.

⁴ - ابن خلدون، تاريخ العبر، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص 218.

المنفعة منهم⁵... وكل ذلك يفضي الى أن " الأمم البدوية أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواها من الأمم..."⁶

وفي المقابل، يتهم فريق عريض من الباحثين والكتاب (محمد تقيّة، عبد القادر جغلّول، جاك أرنولت⁷، أنغوين أنغي⁸، ألخ...) الطرح السابق بالتهافت، ويستدلون على ذلك بالعديد من الاثباتات والوقائع... وليس أقلها كون مبادرة حمل السلاح وتفجير الثورة هي -بالأساس- من فعل مناضلين حضريين⁹... بل أكثر من ذلك، ما كان الوعي الثوري لفلاحي الريف أن يتشكل لولا الكوادر القادمة من المدن التي نقلت إليهم فكرة الثورة وكونتهم سياسيا ولقنتهم مبادئ التنظيم¹⁰... زد على هذا أن اطلالة خاطفة على القائمة الطويلة لقادة الثورة ستعكس حضور العديد من الفئات الاجتماعية عدا الفلاحين (إلا نادرا) وذلك بسبب ضعف مستواهم في الثقافة السياسية¹¹. ومن ثم يخلص هذا الفريق الى أن الريف وإن شكل قوة رئيسية أو بالأحرى قوة محركة للثورة إلا أن القوة الموجهة والقيادية لها كانت هي المدينة¹². إزاء هذا الجدل وفي نفس الوقت بعيدا عنه، نود مُساءلة المدن الجزائرية بخصوص الدور الفعلي الذي اضطلعت به إبان الثورة التحريرية؟ لكن وحتى لا نغدو مثل فأر الألعاب الذي يركض بقوة على عجلة دوارة معتقدا أنه يتقدم بينما هو يراوح مكانه، لا مندوحة -منهجيا- من:

⁵- المصدر نفسه، ص 220.

⁶- المصدر نفسه، ص-ص 242-243.

⁷- Jacques Arnault, «Du colonialisme au socialisme», Edit. Sociales, Paris, 1966.

⁸- Nguyen Nghe, «Frantz Fanon et les problèmes de l'indépendance», in *La pensée*, n° 107, fev. 1963, pp. 23-36.

⁹- محمد تقيّة، الثورة الجزائرية المصدر والمآل، تر عبد السلام عزيزي، دار القصة، الجزائر، 2010، ص، ص: 186، 188.

¹⁰- Nguyen Nghe, op.cit., pp 23-36. 190-189 ص ص المرجع السابق،

¹¹- محمد تقيّة، المرجع السابق، ص 188.

¹²- انظر:

- عبد القادر جغلّول، أعمال عبد القادر جغلّول، المجلد الأول: "تاريخ الجزائر والمغرب العربي"، تر: فضيلة حكيم وفيصل عباس، ذاكرة الناس، الجزائر، 2013، ص.

- محمد تقيّة، المرجع السابق، ص-ص: 289-294.

- تمحيص المفاهيم المستعملة وبالأخص كلمتي "الريف" و"المدينة": فهل تدلان على محتويات بشرية أم على أطر اجتماعية؟ ومن ثم هل هما حالتان توازيتان (جامدتان) أم تشيران الى حالتين دينامكيتين متغيرتين باستمرار؟

- هذا الى جانب مراجعة الاطار التفكيرى الذي يُطرح -عادةً- ضمنه هكذا اشكال؛ ونعني -بالأخص- فكرة التقابل بين الريف والمدينة، وذلك من خلال تجاوز "التفكير الخطي" الذي يجعل من هذا التقابل "ثنائية ضدية عدائية" واعتماد "التفكير في حلقات" الذي يتيح اتخاذ موقف شامل خارج الأطر المرجعية. بيد أنه، وقبل التصدي لهكذا تحديات أو بالأحرى بغية التصدي لها، تقع على عاتقنا -ابتداءً- مهمة فحص الوقائع التاريخية المتعلقة بإسهام المدن في معركة التحرير. والبداية تكون -بالطبع- من العام الأول للثورة وما ميزه من غياب لافت للمراكز الحضرية.

1- اندماج متأخر:

من مفارقات التاريخ التي تستفز المنطق أن المراكز الحضرية (المدن) التي احتضنت الثورة عندما كانت مجرد فكرة طوباوية وأدخلتها في نطاق الاحتمالات القابلة للتحقق، تلكأت في تبنيها بعدما تحولت الى فعل قائم هنا والآن ابتداءً من الفاتح نوفمبر، وترددت في الاندماج في منظومتها الوليدة، وآثرت التمادي لردح من الزمن كمعاقل للقوى السياسية التقليدية التي كانت إما مناوئة لجهة التحرير كالمصاليين، أو لم تصل بعد الى اتفاق معها كالبيانين، إلخ...

فإذا أخذنا مدينة قسنطينة -على سبيل المثال- وهي أكبر مدن الشرق الجزائري، وأحد معاقل التيار الداعي الى العمل المباشر، نجد أنها دخلت حرب التحرير متأخرةً عن المناطق الريفية في الشمال القسنطيني والاوراس بستة أشهر كاملة. وهذا على الرغم من مشاركتها القوية في اجتماع الـ 22 الذي التئم في صائفة 1954 وقرر الشروع في العمل الثوري، إذ مثّلها خمسة مناضلين (محمد مشاطي، عبد السلام حباشي، سعيد بوعلي، راجح بيطاط، رشيد ملاح)، كما احتضنت عقبه مباشرة شبكة من زهاء أربعين عنصرا شرعت في التحضير العملي للثورة¹³... لكن سرعان ما توقف كل شيء بسبب خلافات حول بعض مسائل القيادة¹⁴ بين بوضياف وما عرف بـ "مجموعة قسنطينة"¹⁵... ما أفضى الى غياب المدينة عن موعد

¹³ -Mohammed Boudiaf, la préparation du 1° novembre 1954, 1974.

¹⁴ - انظر:

- شهادة عبد الرحمان قيراس، في: مصطفى سعداوي، المنظمة الخاصة ودورها في الاعداد لثورة أول نوفمبر، دار الأوراق الزرقاء، الجزائر، 2009، ص-ص: 394-399.

- محمد مشاطي، مسار مناضل، تر زينب قبي، منشورات الشهاب، الجزائر، 2010، ص 70-71.

أول نوفمبر 1954، ولم تندمج من جديد في العمل الثوري إلا مع مطلع مايو 1955، حيث شاهدت أولى العمليات الفدائية¹⁶.

عدا بعض الاختلافات الطفيفة، يسري ذات التقرير السابق على مدينة سكيكدة، فقد كانت تضم إحدى أكبر قسمات "حزب الشعب-حركة الانتصار" على المستوى الوطني من حيث عدد المناضلين¹⁷. وهو ما يفسر مسعى مؤسسي جبهة التحرير لإنشاء نواة لنظام الثورة فيها قبيل أول نوفمبر 1954، وذلك عن طريق بشير بوقادوم الذي كان على اتصال بأحد أعضاء مجموعة 22 من قسنطينة (محمد مشاطي)، غير أن انسحاب جماعة قسنطينة أدى الى توقف العملية وبالتالي لم تشهد المدينة أي تحرك يذكر ليلة "عيد كل القديسين"¹⁸. وبعد اندلاع الثورة، وبالرغم من أن مسؤول المنطقة الثانية ديدوش زار شخصيا المدينة عدة مرات، وتواصل مع العديد من مناضليها وكوادرها لكن دون جدوى¹⁹... بل أسوأ من ذلك أضحى معقلا للمصاليين الذين نفذوا أول عملية مسلحة على مستوى المدينة يوم 25 ديسمبر 1954، وتمثلت في اغتيال مفتش الشرطة (عبد الحميد شنوفي). وكان لهذه العملية آثارا كارثية على مختلف التنظيمات الوطنية في مدينة سكيكدة، حيث تعرضت لقمع وحشي أفضى الى فكفكة

- Abdelmadjid Merdaci, «Constantine-1954 : entre l'insurrection et la dissidence», in M. Harbi et B. Stora (dir), **la guerre d'Algérie 1954-2004 la fin de l'amnésie**, Ed. Chihab, Alger, 2004, pp 189-191.

¹⁵- تضم مجموعة قسنطينة بشكل أساسي كل من محمد مشاطي وعبد السلام حباشي وسعيد بوعلي ورشيد ملاح.

¹⁶- تمثلت هذه العمليات في وضع قنبلة في كازينو وهو ملهى ليلي يقع في قلب المدينة الاوربية، وكذا إلقاء قنبلة يدوية على مدخل حانة أخرى تقع بالقرب من شارع فرنسا، واطلاق الرصاص على مفتش بالاستعلامات العامة يدعى شريف. انظر:

- Abdelmadjid Merdaci, op.cit., p 187.

- جودي بوطمين، لمحات من ثورة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 289.

¹⁷- محمد قديد، الرد الوافي على مذكرات كافي، دار هومه، الجزائر، 2001، ص 29.

- Mohammed Harbi, **L'Algérie et son destin**, Médias Associés, Alger, 1994, p 240.

¹⁸- محمد قديد، المصدر السابق، ص 29.

¹⁹- المصدر نفسه، ص-ص: 30-34.

هياكلها وبعبثرة مناضليها: سجننا وهجرة وانطواء²⁰... ولم تقم لنظام جبهة التحرير قائمة بالمدينة إلا بعد حوالي أربعة أشهر من ذلك، ولم ينخرط هذا النظام في العمل الثوري فعليا إلا ابتداءً من أوت 1955. ويكاد لا يختلف مسار أغلب مدن شرق البلاد عما سبق، عدا مدينة سطيف التي كانت معقلا لتيار فرحات عباس، إذ فاز حزبه (الاتحاد الديمقراطي لأحباب البيان) فيها خلال الانتخابات المحلية لسنة 1947 -التي اتسمت بقدر معتبر من النزاهة- بينما فازت في جل المدن الأخرى قوائم حركة الانتصار (مصالي)، وذلك لتعاطف معظم العائلات السطايفية الكبيرة مع عباس واندماجها في حركته. وعليه، فقد ظل حضور الثورة في مدينة سطيف باهتا الى غاية اعلان فرحات عباس انضمامه الى جبهة التحرير في أفريل 1956، وعندها التحق أغلب أنصاره على مستوى المدينة بصفوفها، ليكون من بينهم أول الشهداء الذي سيسقطون في هذه الناحية وهم عبد الرحمان بلهوة ولخضر برباح ولخضر بشياح²¹.

أما إذا انتقلنا الى وسط البلاد، فإننا سنكتشف أن جلّ المدن في هذه المرحلة كانت تحت النفوذ الحصري للتيار المصالي، كما هو حال مدينة البويرة -على سبيل المثال- التي لم تستطع الثورة أن تجد موطن قدم لها إلا بعد حوالي عام من انطلاقها. وذلك عندما تمكن في أكتوبر 1955 محمد بن عبد الله المدعو "الفوتغراف" (أي المصور) بمعية محمد شياد وعبد القادر مزعي وعلي ولد قاضي وحسان شريفي ومحمد عمار عبد القادر وعمر الخياط وبوجمعة مبارك ورايح الجادي ورايح بيتوس من تأسيس أول خلية تابعة لجبهة التحرير²². وبعد رح من الزمن وبفضل العمل المكثف نجح هؤلاء المناضلون في قلب موازين القوى على مستوى مدينتهم لصالح جبهة التحرير.

لا ينفي ما سبق وجود مدن -على قلتها- موالية بشكل أو بآخر لجبهة التحرير في هذه المرحلة المتقدمة لكن دون أن تنخرط فعليا في العمل المسلح إلا في فترة متأخرة نسبيا. وتعد مدينة تيزي وزو أحسن مثال على ذلك؛ إذ على الرغم من برمجة أعمال مسلحة فيها ليلة أول نوفمبر 1954 -كما يؤكد ذلك مسؤول ناحية تيزي وزو علي زعموم- لم يتم تنفيذ أي منها. وصحيح أنه سرعان ما تشكلت فيها خلايا شرعت في جمع الأسلحة واللبسة العسكرية والاحذية (pataugas) والادوية... لصالح الثوار، لكنها لم

²⁰ - المصدر نفسه، ص 37.

- Gilbert Meynier, **Histoire intérieure du FLN**, Ed. Casbah, Alger, 2003, p 449.

²¹ ندوة "مدينة سطيف.. ملتقى الولايات" (بمشاركة العديد مجاهدي المدينة)، في: المنظمة الوطنية للمجاهدين، مجلة أول نوفمبر (الجزائر)، العددان 88 و89، فيفري 1988، ص: 16

²² - انظر:

- Ahmed Hannache, **La longue marche de l'Algérie combattante 1830-1962**, Ed Dahlab, Alger, 1990, p 161.

تشهد وقوع أي عمل مسلح إلا بعد انقضاء أزيد من عام. وكان ذلك بمناسبة الذكرى الأولى لانطلاق ثورة أول نوفمبر، حيث نُظِمَ اضرابٌ عام على مستوى المدينة استجاب له جميع "الاهالي" عدا شخص واحد يملك مخبزة في قلب المدينة يدعى "لواني مسعود"، فقام فدائيو جبهة التحرير الوطني بتصفيته، لتكون هذه العملية أول حلقة في سلسلة طويلة من العمليات الفدائية التي ستشهدها المدينة خلال الثورة.

أما في الغرب الجزائري، فإن الصورة التي رسمناها أعلاه للمناطق الحضرية تبدو بشكل أشدّ جلاءً. وهنا صحيح أن جلّ جهات ما عُرف بـ "المنطقة الخامسة" ظلت هادئة الى غاية الفاتح أكتوبر 1955 حين شهدت الانطلاقة الفعلية للثورة، لكن هذا لا ينفي وقوع عدد من العمليات ليلة أول نوفمبر 1954 في بعض المناطق الريفية بالظهرة وعين تموشنت، إلخ... بيد أن هذا الاستثناء لا يسري على المدن، بما في ذلك مدينة وهران التي ظل مفجرو الثورة (وفي مقدمتهم بن مهيدي) يولونها اهتماما خاصا، بحيث بُرمجت فيها قبيل أول نوفمبر عدة عمليات²³ و أوكل تنفيذها الى أربعة أفواج تحت إمرة شريط على الشريف. لكن وبسبب نقص الامكانيات ألغيت جميعا عدا واحدة (الاغارة على ثكنة بحري محي الدين)، ليتم التراجع عنها هي الأخرى لحظة التنفيذ. واللافت أن هذا لم ينقذ تلك المجموعات المسلحة من قبضة مصالح الامن، حيث فكفكت بشكل كامل اياما معدودةً بعد ليلة الصفر²⁴.

الى هنا قد يتساءل القارئ: ترى ماذا عن مدينة الجزائر عاصمة البلاد التي تلافينا التطرق إليها الى حد الآن؟

في الواقع، جسدت هذه المدينة حالة خاصة بأتم معنى الكلمة؛ وذلك لكونها لعبت دور الحبل السري الرابط بين المولود الجديد (الثورة) ذي الطابع الريفي والرحم التي انبثق منها والمتمثلة في عالم المدن. وبالتالي، لا غرابة أن تجتمع فيها (أي مدينة الجزائر) حالتان متعارضتان: حالة استثناء بالنسبة للقاعدة العامة السارية المفعول بخصوص الحواضر المشار إليها أعلاه، وفي نفس الوقت حالة تأكيد لها. إذ (أنها) من نحو؛ احتضنت الاجتماعات واللقاءات التي مهدت لانطلاق الثورة وكانت مسرحا لعدة

²³- نذكر من هذه العمليات: تخريب شبكة الهاتف الخاصة بالمركز العام للشرطة في المدينة، إضرام النار في عدة محطات توزيع البنزين، إعدام مفتشي (اثنين) شرطة، وبالأخص الاغارة على الثكنة العسكرية الكائنة بحي الكميل (حي محي الدين حاليا). انظر:

-Omar Carlier, «Le 1° nov. 54 à Oran», in Robert Ageron (Dir), **La guerre d'Algérie et les Algériens**, Ed. Armand Colin, Paris, 1997, pp : 13-14.

- بلوفة عبد القادر (جيلالي)، حركة الانتصار في عمالة وهران: الخروج من النفق 1950-1954، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2008، ص-ص: 333-334.

²⁴- O. Carlier, op.cit, p 14.

عمليات ليلة أول نوفمبر 54، لكن من نحو آخر سرعان ما جرى تفكيك المجموعات الناشطة فيها أياما قلائل بعيد انطلاق الثورة، كما اصطدمت بعدة عراقيل وصعوبات لاسترداد زمام المبادرة مرة أخرى، وذلك لا بفعل القمع الاستعماري فحسب ولكن كذلك بسبب المنافسة الشرسة من تنظيمات موازية كالحركة المصالية والحزب الشيوعي... ولم يأخذ الأمر في الاستتباب نسبيا لصالح جهة التحرير إلا مع أواخر 1955 على غرار ما حدث في جلّ المدن الأخرى.

بيد أن هكذا استتباب نسبي بعد تجاوز مؤقت للتحديات الخارجية، سرعان ما فسح المجال لبروز تحدي داخلي أكثر تعقيدا وأشد خطورة؛ جسدهته تجاذباتٌ جوانية حول الفضاء الحضري بين مكونات الثورة ذاتها.

2- محل التجاذبات:

ابتداءً من أواخر 1955، أخذت جهة التحرير تحقق نجاحات متوالية في عالم المدن، إذ تمكنت من إزاحة بعض منافسيها واحتواء البعض الآخر لتحكم -في النهاية- سيطرتها على معظم الحواضر.²⁵ غير أن ذلك لم يكن يعني انتهاء الصراع حولها (أي المدن) وإنما تحولته إلى نوع من التجاذب الداخلي. ومن أبلغ الأمثلة على ذلك مدينة سطيف، فقد كانت غداة انطلاق العمل المسلح ملحقة نظريا بـ "المنطقة" الثانية (الشمال القسنطيني)، لكن نتيجةً لانقطاع الاتصال معها أضحت منذ منتصف 1955 تتبع عمليا "المنطقة" الأولى (الأوراس). وفي نفس الوقت تشكل فيها "تنظيم" تابع لـ "المنطقة" الثالثة (القبائل) كونه الشيخ العيفة وحسين موسطاش، ما أدى -حسب معيزة²⁶- إلى "وقوع بعض المشاكل التنظيمية في المدينة"²⁷. واستمر الحال على ذلك إلى غاية مؤتمر الصومام (أوت 1956) الذي أدرج المدينة ضمن تراب

²⁵- بيد أن هذا لا يسري على كل المدن، فمدينة بجاية -على سبيل المثال لا الحصر- -كما يتبين من محضر اجتماع قيادة الولاية في ماي 1958- ظلت غير مهيكلة وغير منتجة ماليا وتموينا إلى غاية ماي 1958 كما يؤكد ذلك محضر اجتماع قيادة الولاية المؤرخ في 03 ماي 1958. وقد أرجع النقيب سي عبد الله قائد المنطقة الثانية من الولاية الثالثة (التي تتبعها المدينة المعنية) هذا التأخر إلى سوء تقدير نائبه العسكري الذي أمر بإلغاء أي نشاط فدائي في المدينة خشية تسليط الاستعمار للعقاب على السكان المدنيين. إنظر:

Willaya 3, PV de réunion du comité de la Willaya 3, mai 1958. (Archives privés)

²⁶- ندوة "مدينة سطيف.. ملتقى الولايات"، مجلة أول نوفمبر، العددان 88 و89، ص: 16.

²⁷- من أمثلة المشاكل التي كانت تقع؛ قيام تنظيم فدائي تابع لولاية ما بتنفيذ عملية فدائية في المدينة بعد أن يكون قد أمر فدائييه بعدم ارتياد المكان المستهدف حتى لا يقعوا في أيدي الأمن الاستعماري الذي عادة

الولاية الثالثة على أن يلتزم تنظيم هذه الأخيرة على مستوى المدينة بتقديم الدعم للولايتين الأخريين في مجالي التموين والاتصال²⁸. وبعد فترة من التلكؤ في تطبيق هذا القرار²⁹ رافقها مسعىً حثيثاً لإقناع القيادة الوطنية بمراجعته لكن دون جدوى، سُلمت المدينة في مطلع 1957 الى الولاية الثالثة. بيد أن هذا الوضع الجديد لم يدم طويلاً، حيث صدر في عام 1958 قرار بإعادة المدينة الى الولاية الأولى. ويشير جيلبير ميني³⁰ إلى أن "لجنة التنسيق والتنفيذ" هي من اتخذ القرار الأخير وذلك في جويليه 1958، بينما تذهب مصادر محلية (عدد من مجاهدي المدينة) الى أنه صادر عن قادة الداخل المجتمعين في ديسمبر 1958، مضيفاً بأن تنفيذه لم يتم إلا بعد فترة انتقالية دامت 8 أشهر أي في أوت 1959³¹. ومهما تكن التفاصيل المحيطة بالقرار الجديد، فإنه لم يفرضي الى فصم علاقة الولاية الثالثة بالمدينة، حيث ظلت شبكتها تنشط فيها، واستمرت قيادتها بالأخص في عهد العقيد موح ولحاج تطالب الحكومة المؤقتة باستعادتها، كما جرت لقاءات بهذا الخصوص بين ممثلي الولايتين، أهمها لقاء ماي 1961 بين الرائدتين مصطفى بن نوي (الولاية 1) وأحميي فاضل (الولاية 3)³²... وتوجت مساعي الولاية الثالثة في 1 ديسمبر 1961 (أي أشهراً قليلة قبل وقف القتال) باستعادة المدينة وأسندت قيادتها الى عمار "أباشة" المدعو "بن باشا" أصيل ذات المدينة³³. وهنا لا بد وأن يثور التساؤل حول خلفيات هذه التجاذبات التي ما برحت تتعرض لها حاضرة سطيف؟

لعل أحد أهم عناصر الاجابة على هذا السؤال يتمثل في وقوع هذه المدينة على تخوم ثلاث ولايات تاريخية، الأمر الذي جعلها أشبه بمناطق الضعف الجيولوجي التي تقع على خطوط التماس بين الكتل القارية ومن ثم تكون عرضة باستمرار لـ "الحركات التكتونية". وتؤكد هذه الحقيقة مدينة برج بوعريج

ما يطوق بسرعة مكان العملية، لكن نظراً لوجود أكثر من تنظيم في المدينة غالباً ما تقع اعتقالات لعناصر فدائية تابعة لتنظيم آخر غير التنظيم المسؤول عن العملية.

²⁸ - إنظر: محضر اجتماع مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956. في: Abdelhafid Amokrane El Hassani, op.cit, p. 166.

²⁹ - لعل ذلك يعود إلى أن القائمين على تنظيم الولاية الأولى في مدينة سطيف لم تصلهم أي تعليمات بخصوص انتقال المدينة الى الولاية الثالثة من قيادة ولايتهم التي لم تتمكن من حضور أشغال المؤتمر.

³⁰ - Gilbert Meynier, op.cit., p. 404.

³¹ - ندوة "مدينة سطيف.. ملتقى الولايات"، مجلة أول نوفمبر، العددان 88 و89، ص: 22-23.

³² - Gilbert Meynier, op.cit., p. 404.

³³ - C.A. Constantine, Zone Ouest Constantinoise, rapport de renseignements sur activités rebelle, décembre 1961, in Archives SHAT, 1H1643.

الواقعة هي الأخرى على حدود الولايتين الأولى والثالثة، وعليه فقد كانت مسرحا لتجاذب داخلي شبيه بما عرفتته مدينة سطيف وربما أخطر. فقد ارتبطت بالولاية الأولى الى غاية أواخر 1956 ثم ألحقت بالولاية الثالثة بعد ذلك، الأمر الذي ولد نوعا من الصراع بين القيادة الجديدة المُمثّلة للولاية الأخيرة وشبكات ناحية المعاضيد التابعة للولاية الأولى التي ظلت تنشط في المدينة رافضة الإقرار بالأمر الواقع³⁴. وحسب رسالة للمحافظ السياسي الجديد للمدينة (سي عبد الرحمان) مؤرخة في 10 فيفري 1957، فقد وصل الأمر في المدينة بفعل تحركات بعض المسؤولين المحسوبين على الولاية الأولى الى حد تشكيل فرق موازية من الفدائيين، وإرغام السكان على العمل معهم، وبروز حالات تمرد وسط المناضلين الذين أصبح بعضهم يتمتع عن دفع الاشتراكات، بل ودبّ الخلاف بين أعضاء لجنة المدينة التي استقال منها أمين المال وحذا حذوه أعضاء آخرون، وأمسى الوضع قاب قوسين أو أدنى من الاقتتال الدموي. ورأت شرطة استعلامات مدينة برج بوعريج التي احتجزت الرسالة المعنية، في مضامينها دليلا على وجود خلافات خطيرة بين "القادة القبائل" القادمين من الشمال و"القادة العرب" المنتمين الى ناحية المعاضيد³⁵. ويبدو هذا التحليل منطقيا إذا نظرنا إلى الموضوع من منظور جزئي يأخذ بعين الاعتبار مدينة البرج وحدها، إذ في هذه الحالة تظهر الحدود الفاصلة بين أطراف الصراع وكأنها ذات طابع إثني أو على الأقل ألسني. بيد أننا إذا وسعنا المنظور ليشمل مدنا أخرى، سنكتشف أن صراعات مماثلة كانت موجودة في العديد منها رغم غياب أي مظهر من مظاهر الانقسام الاثني فيها، كما هو الحال في مدينتي "بجاية" و"تيزي وزو" المتواجدتين في فضاء متجانس اثنيا ولغويا.

ففي مدينة بجاية، وعلى الرغم من إدراجها رسميا ضمن تراب المنطقة الثانية للولاية الثالثة (الضفة اليسرى للصومام)، لم تكف شبكات المنطقة الأولى التابعة لذات الولاية (الضفة اليمنى للصومام) عن النشاط فيها، الأمر الذي كان يتسبب في فوضى تنظيمية على مستوى المدينة لاسيما في مجال جمع الأموال (اشتراكات، تبرعات...)، ومن ثم يؤجج النزاع بين المنطقتين. وقد استمر ذلك -حسب بعض المصادر- الى غاية صيف 1961 عندما جرى اتفاق بين الرائد أحميحي فاضل القائد التاريخي للمنطقة الأولى ومسؤولي الناحية 324 (الناحية الرابعة من المنطقة الثانية من الولاية الثالثة) يقضي باستئثار المنطقة الأولى بجمع الأموال والإشراف على الاتصالات في مدينة بجاية، فيما بقيت مسائل

³⁴- P.R.G. de B.B.Arredj, deux correspondances du F.L.N. saisis dans le secteur de B.B.A, le 9 juillet 1957, in Archives CAOM 93-4415.

³⁵ -Ibidem

خلافية أخرى عالقة على أمل أن تُسوى خلال الجولات التي كان قد شرع فيها العقيد أكلي محند ولحاج³⁶. وهو ما انتهى -على ما يبدو- إلى تحويل بجاية إلى "منطقة مستقلة" تابعة مباشرة للولاية الثالثة، ووضع على رأسها أحسن دحاس أحد اطارات المنطقة الأولى³⁷، الشيء الذي يشير -من طرف خفي- إلى نوع من التكريس الرسمي للأمر الواقع الذي فرضته المنطقة الأخيرة على مستوى المدينة.

أما مدينة تيزي وزو التي كانت جزءاً من المنطقة الثالثة (التابعة للولاية الثالثة) منذ تشكيلها إلى غاية انتهاء الحرب، فإن وضعها هذا كان أبعد ما يكون عن ارضاء المنطقة الرابعة (التابعة لنفس الولاية)، وهو ما يؤكد -على سبيل المثال لا الحصر- محضر اجتماع قيادة المنطقة الأخيرة المنعقد يومي 25 و26 فيفري 1960³⁸. وعليه، ما برحت القيادة المذكورة تطالب بضم كل ناحية تيزي وزو إليها أو على الأقل قطاعي معاتقة ومشراس، معللة ذلك بوصفه حاجة تنظيمية حيوية بالنسبة لمنطقتها، علاوة على أنه تصحيح ضروري للتقسيم الاقليمي غير العادل بين المنطقتين الثالثة والرابعة.

وعلى ضوء على ما سبق، نخلص إلى أن العديد من المدن كانت مسرحاً لتجاذب داخلي مستشّر، وقد شجع على ذلك -كما رأينا أعلاه- الوضع الحدودي لتلك المدن. بيد أنه من الخطأ اعتبار هذا المعطى (الاخير) أكثر من ظرفٍ ساعد على بروز التجاذب المعني بجلاء، وتطوره بسرعة، أما العامل المنشأ له فيكمن في الأهمية الفائقة التي مثلتها هذه الحواضر بالنسبة لمعاقل الثورة المتمركزة في الريف. ولعل من أبرز النماذج العاكسة لهذه الحقيقة، مدينة الجزائر الواقعة في عمق النطاق الاقليمي للولاية الرابعة، ومع ذلك أضحت موضع "تنافس شرس" بين عدة ولايات، بالأخص الثالثة والرابعة.

ويعود التنافس بين الولايتين على مدينة الجزائر إلى السنة الأولى من عمر الثورة، لكن وبسبب الأوضاع الصعبة التي جابهتها الولاية الرابعة آنئذ، علاوة على الحاجة الماسة إلى التعاون بين الولايتين، فقد ظل هذا التجاذب في حالة كمون إلى غاية مؤتمر الصومام (أوت 1956). وخلال هذا الأخير، تقرر تحويل مدينة الجزائر إلى منطقة مستقلة تشرف عليها مباشرة لجنة التنسيق والتنفيذ بواسطة أحد أعضائها وهو العربي بن مهيدي. بيد أنه عقب ما عرف في الادبيات الفرنسية بـ "معركة الجزائر" 1957 وما ترتب عنها من تفكيكٍ لتنظيمات الثورة على مستوى العاصمة، بدأ سباق محموم بين الولايتين من أجل

³⁶ -Zone Ouest Constantinois et 19° D.I, secteur de Bougie, Renseignements (accord de la Nahia 3.2.4 et la Mintaka 3.1 sur le destin de la ville de Bougie, 1° aout 1961, in **Archives SHAT, 1H 1643**.

³⁷ -Rachid Adjaoud, **le dernier témoin**, Casbah-éditions, Alger, 2012, p 253.

³⁸ -Willaya 3, Zone 4, P.V. de réunion zonale du 25 et 26 février 1960, in **Archives SHAT 1H 3417**.

بسط النفوذ على المدينة بحجة إعادة هيكلتها، واستمر ذلك الى غاية وقف اطلاق النار في 1962. ويكفي دلالة على ضراوة هذا التجاذب أنه على الرغم من قرار الحكومة المؤقتة الصادر في جويليه 1960 والقاضي بإلحاق المدينة رسميا بالولاية الرابعة، فقد ظلّ يتجاور فيها تنظيمين: أحدهما "رسي" والآخر "مواز":

يتبع التنظيم "الرسي" الولاية الرابعة، وبمقتضاه أُعتبرت مدينة الجزائر منطقة سادسة تابعة لها، وقسمت الى ثلاث نواحي هي:

- الناحية الأولى وتضم الجزائر الوسطى، حسين داي، الأبيار، بوزريعة، دالي ابراهيم، القبة، بئر مراد رايس، وبولوغين.

- الناحية الثانية وتشمل بئر توتة، بئر خادم، سحالة، شبلي.

- الناحية الثالثة وتتألف من العاشور، أولاد فايت، درارية، بابا حسن، دويرة، سطاوي، عين البنيان، شراقة، خرايسية، معاملة.

أما التنظيم الموازي، فكان يتبع الولاية الثالثة. وبموجبه أدمجت مدينة الجزائر كمنطقة خامسة في المنظومة الاقليمية للولاية المعنية، وتمت هيكلتها في أربع نواحي مقسمة بدورها الى أربع أقسام وذلك كالآتي³⁹:

-الناحية الأولى: تشمل الأقسام الآتية: 1- باب الواد 2- السيدة الافريقية 3- سانت أوجين 4- بوزريعة.

- الناحية الثانية: تضم كل من: 1- القصبة 2- كليما دو فرانس Climat de France 3- الأبيار 4- شوم مانوفر Champs manœuvre.

- الناحية الثالثة: تتألف من الأقسام التالية: 1- بلكور 2- العناصر (رويسو) 3- كلوصالومي Clos Salembier (المدنية) 4- حسين داي.

- الناحية الرابعة: تغطي الأقسام الآتية: 1-بئر مراد رايس 2- القبة 3- حيدرة 4- بن عكنون.

هذا التنافس بين الولايتين على المدينة كان مرشحا للتطور الى ما هو أخطر، سيما وأن الجماعات الفدائية والمصالح المختلفة التابعة لكلا التنظيمين لم تكن تعترف بسلطة التنظيم المنافس. وتجلى ذلك بوضوح عندما أقدمت الولاية الرابعة مستندة الى الشرعية التي اكتسبتها بموجب قرار الحكومة المؤقتة (جويليه 1960) على تخيير الكيانات التابعة للولايات الاخرى بين الاندماج في المنطقة السادسة أو التصفية... هذا، ولم يكن الامر مقتصرًا على الجوانب التنظيمية والعسكرية فحسب، بل انعكس أيضا على الواقع الاجتماعي للمواطنين، حيث ترتب عن التنازع حول السلطة بين التنظيمين آثارا وخيمة على

³⁹ -Divers correspondances entre les responsables de la W3 et Si Rachid chef de la Zone 5, willaya 3 (ville d'Alger) durant l'année 1961, in Archives SHAT, 1H1643.

الحياة اليومية للعاصميين. وبهذا الخصوص، يكفي أن نستشهد برسالة المدعو محند يونسى التي وجهها مع مطلع 1962 الى أحد مسؤولي الولاية الثالثة يدعى سي بلعيد⁴⁰. ويستفاد من محتواها أن المعني وهو صاحب عائلة كثيرة العيال، كان يقيم في مسكن صغير وضيق في القصبة، فاشترى مسكنا أوسع منه في سبتمبر 1961 بعد الحصول على إذن من ممثلي الثورة (التابعين للولاية الثالثة) على مستوى المدينة نظير دفع ضريبة قدرها 500 ألف فرنك، غير أنه تلقى في جانفي 1962 رسالة (من ممثلي الولاية الرابعة) تطالبه بدفع مبلغ 1 ملايين فرنك في ظرف 8 أيام، ما جعله يتساءل بمرارة: هل لدينا حكومتان مؤقتتان للجمهورية الجزائرية أم حكومة واحدة؟

هذه الحالة ومثلها كثير، فهي وإن كانت تلقي الضوء على خطورة وتعقيد الظاهرة التي نحن بصدددها، فإنها تضع السطر كذلك تحت أحد أهم أسبابها، ألا وهو الأهمية الاستثنائية التي كانت تمثلها المدن عامة ومدينة الجزائر خاصة بالنسبة لمعاقل الثورة المتمركزة في الريف. ترى فيما كانت يتجسد تلك الأهمية؟

3- رنة المعاقل:

لا مشاحة في أن معاقل الثورة كانت تتمركز في الجبال لكن رثتها التي تتنفس منها كانت توجد في المدن، وتتجسد -بشكل أساسي- في شبكات الدعم اللوجستيكي الذي ما برحت توفر لها مختلف احتياجاتها. وكان من الوارد في حالة توقف هذا الدعم أن تعجز قوى الثورة على مستوى الريف عن مواصلة الكفاح، سيما وأن الدعم المعني كان يغطي مجالات عديدة ومتنوعة، أهمها التمويل والتموين والاستعلامات والتأطير والاتصالات والدعاية:

فيما يخص التمويل أي جمع المال الذي يمثل "عصب الحرب"، كانت المدن هي المكان الأنسب لذلك؛ فبحكم كونها مراكز تجمع سكانية هامة (كان عدد سكان مدينة الجزائر -مثلا- حوالي 364 ألف نسمة⁴¹ ومدينة سطيف أزيد من 40 ألف نسمة⁴² ومدينة بجاية حوالي 30 ألف⁴³... وهلم جرا) كانت تتيح

⁴⁰ -رسالة المواطن محند يونسى الى سي بلعيد (أحد مسؤولي الولاية الثالثة) مؤرخة في 23 مارس 1962، في:

Archives SHAT 1H 1643.

⁴¹ - انظر: - العربي ايشبوزان، مدينة الجزائر: تاريخ عاصمة، تر. مسعود جناح، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص 382.

⁴² -Monographie de la ville de Sétif, année 1952, p 3, in Archives CAOM 93/ 4207 et 4208.

⁴³ -Monographie sommaire de Bougie chef lieu de la Petite Kabylie, in Archives CAOM 93/ 4207-4208.

الحصول على عدد أكبر من الاشتراكات والتبرعات.... هذا إضافة الى احتضانها لبرجوازية مسلمة هامة تمكنت من خلال ممارسة التجارة من تجميع ثروات كبيرة، بل حتى كبار ملاك العقار في المناطق الريفية كانوا يقطنون غالبا في المدن، وبالتالي حينما يساهم هؤلاء في مساندة الثورة بأموالهم إنما يقومون بذلك في المدن⁴⁴.

أما دور التموين فهو أكثر جلاءً؛ فقد كانت الأرياف بالكاد تغطي احتياجاتها من المواد الاساسية، وبالتالي لم يكن بُدّ لاقتناء ما يحتاجه جيش التحرير من اللجوء إلى الحواضر المجاورة. وها هنا كانت شبكات التموين التابعة للثورة تجتهد وسعها لكي توفر لها أكثر احتياجاتها من الغذاء واللباس والحذاء والدواء والتجهيزات المختلفة وحتى الاسلحة والذخيرة أحيانا... فللحصول -مثلا- على كميات معتبرة من المواد الصيدلانية الضرورية لعلاج المقاتلين الجرحى وسكان الريف كان من الضروري اقامة شبكات تواطؤ مع الصيادلة والأطباء ومستخدمي القطاع شبه الطبي... وذلك لم يكن ممكنا إلا في المدن⁴⁵.

ونفس الامر بالنسبة لعملية جمع المعلومات حول قوات العدو ومخططاته وتحركاته.. وإبلاغ معاقل الثورة في الداخل بها، فالمدن كانت هي الإطار الأمثل لذلك، بالأخص عاصمة البلاد. وذلك بالنظر الى تمركز الهيئات القيادية والإدارات المركزية والمؤسسات الحيوية التابعة للاستعمار فيها. وبهذا الخصوص، تشير العديد من المصادر الى نجاح قيادات بعض الولايات في اختراق "الحكومة العامة" وبث عيون الثورة في أوساطها⁴⁶.

هذا علاوة على أن الأوساط الحضرية وبفضل السقف الثقافي المرتفع والتكوين السياسي المتين الذين يتمتع بهما العديد من سكانها، كانت تشكل رافدا حيويا لمعاقل الثورة بمختلف الكفاءات والكوادر المؤهلة لتأطير العمل الثوري⁴⁷.

في ذات السياق، لا يفوتنا التنويه بدور المدن كمقرات للتنسيق والاتصال بين معاقل الثورة في الداخل وبينها وبين امتداداتها في الخارج، وكفي -هنا- التذكير باختيار لجنة التنسيق والتنفيذ وهي أعلى هيئة قيادية للثورة (1956-1957) مدينة الجزائر لتستقر فيها بعد أن جعلتها منطقة مستقلة. وانطلاقا منها، ظلت لما يقارب السنة تشرف على العمل السياسي و العسكري للثورة عبر كافة أرجاء البلاد وحتى خارجها. وبعد مغادرة اللجنة المذكورة مكرهة للمدينة، تواصل اضطلاع هذه الاخيرة وغيرها من المدن بمهام

⁴⁴- محمد تقيّة، المرجع السابق، ص 192.

⁴⁵- أما في الريف، فكان من غير الممكن شراء الادوية إلا بكميات قليلة جديدة من قبل الفلاحين الذين يقصدون المدن الصغيرة المجاورة وذلك بسبب الرقابة البوليسية الشديدة. انظر المرجع نفسه.

⁴⁶- Djoudi Attoumi, *Le colonel Amirouche à la croisés des chemins*, t2, p 203.

⁴⁷- محمد تقيّة، ص 192.

التنسيق والاتصال، وذلك بفضل الاسهام المحوري للتجار ورجال الصناعة وأصحاب المهن الحرة المقيمين في المدن ممن تفرض عليهم أعمالهم القيام بالأسفار في ربط الاتصال ما بين الولايات وبين الداخل والخارج⁴⁸.

أضف الى ما سبق حقيقة أن الثورة لم تكن تجد منابر اعلامية ودعائية حقيقية إلا في المدن. فمدينة الجزائر -مثلا- كانت مركزا لتجمع القنصليات الاجنبية ومندوبي الصحافة العالمية ومراسلي وكالات الانباء الدولية الى جانب مقرات أغلب وسائل الاعلام المحلية... وبالتالي فإن أي عمل فدائي أو تحرك سياسي أو نشاط اعلامي... لصالح الثورة على مستواها ومهما صغر حجمه، كان يحظى بالحد الأقصى من الاصداء الاعلامية داخليا وخارجيا⁴⁹.

هذا، ولا يجب أن نغفل أيضا دور المدن في تحييد وتجميد قسم هام من قوات العدو داخلها (أي المدن)، ومن ثم تخفيف الضغط على الولايات وإتاحة الفرصة لجيش التحرير لينتظم ويتعزز أكثر فأكثر⁵⁰. وليس أدل على ذلك من الاثار الوخيمة التي نجمت عن نجاح الاستعمار أواخر سنة 1957 في تأمين العديد من المدن (بالأخص العاصمة)، ما أدى الى نقل القوات المكلفة بحصارها للعمل في الجبال، فتكاثرت مراكز المراقبة، وتضاعفت عمليات التنشيط، وكان ذلك من الناحية العسكرية كارثيا على معاقل الثورة في الأرياف⁵¹.

وأخيرا وليس آخرا. تتجسد إحدى أهم الإضافات التي تمخضت عن إدماج المدن في المنظومة الثورية في "تسييس العنف الثوري"⁵² أو بعبارة أوضح تحقيق التكامل بين الكفاح المسلح والعمل السياسي بحيث أضى الأول استمرارا للثاني بوسائل أخرى⁵³. وهو ما تجلّى عمليا في تعزيز الاعمال العسكرية التي كانت تنفذها قوى الثورة في أعماق البلاد بعيد سياسي. وبدون هذا الاخير كان من السهل على الاستعمار تشويه

⁴⁸ - المرجع نفسه.

⁴⁹ - سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين، دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، تر: محمد حافظ الجمالي، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2003، ص 96.

⁵⁰ - المرجع نفسه.

⁵¹ - جمال الدين بن سالم، أنظروا الى أسلحتنا... أنظروا الى أطبائنا... وقائع المنطقة الأولى بالولاية الثالثة متبوعة بملحمة سي حميمي، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص 112

⁵² - سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص 96

⁵³ - هنا اشارة الى المقولة الشهيرة للمفكر الاستراتيجي الالماني كلوزوفيتز: "الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى".

نشاطات الثوار وتقديمتها للرأي العام المحلي والدولي في صورة أعمال عنف وإرهاب تمارسها مجموعات همجية ومتعصبة من سكان الريف.

كل هذا إنما يعكس الاسهام الحيوي للمدن في مجهود حرب التحرير. لكن هل معنى ذلك أن هذه الفضاءات (الحضرية) كانت مصدرا محضا للمنافع والمصالح بالنسبة لمعاقل الثورة المتمركزة في الأرياف؟

4- مصدر القلاق:

في الحقيقة، كان تفاعل المعازل المذكورة مع المدن تفاعلا مع منظومات شاملة: اقتصادية، اجتماعية، ثقافية ونفسية.. ولم يكن بالإمكان قصره على جانب واحد منها. لذا كان تأثيره أشبه بتأثير الأدوية التي كما لها نتائج ايجابية لها أيضا آثار جانبية ضارة.

ولعل أول ما يلفت الانتباه بهذا الشأن كون العديد من الفدائيين الذين غادروا مدنها التي أصبح العيش فيها لا يطاق والتجئوا الى الأرياف، سرعان ما ألفوا أنفسهم ضائعين في هذا الوسط الجديد... فقد تعودوا على مدنها الصحابة وشوارعها المكتظة وجماهيرها الغفيرة... حيث يشعرون بالراحة⁵⁴. أما هنا في عالم الادغال الموحشة، فقد استبد بهم شعور حاد بالاغتراب. وزاد الطين بلة، كون المجاهدين من أبناء الريف يحصلون على تراخيص للذهاب الى قراهم وزيارة ذويهم، بينما هم لا يمكنهم حتى مجرد التفكير في ذلك، عدا الذهاب الى تونس أو المغرب وهو امر جد استثنائي وفي غاية الخطورة. وإذا كان البعض منهم قد نجح مع الوقت في التكيف مع هذا النمط الجديد من الحياة، فإن البعض الآخر أصابهم الانهالك بل والانهيار العصبي أحيانا، وأضحوا غير قادرين على التحكم في تصرفاتهم، ما شكل مصدرا قلقا جديا للمعازل الثورية التي احتضنتهم⁵⁵، هذا على المستوى الأفراد.

أما على المستوى الجمعي، فقد ترتب عن عمليات الالتحاق المتزايد للمناضلين الحضريين بالجبال في أعقاب تفكيك شبكاتهم في المدن أثران متعاكسان: فمن نحو، أسهم ذلك في تحسين نوعية التأطير وزاد في كفاءة المعازل الثورية في الريف. لكن من نحو آخر، ما فتئ يُضعف التماسك البسيكو-اجتماعي لهذه الأخيرة بفعل تباين عادات وأخلاق وتربية القادمين الجدد مع عالم الريف شديد المحافظة. وهذا الصدام بين أطر مرجعية مختلفة ومنظومات قيمية متباينة كان يشكل بيئة مواتية لانبثاق العديد من الصراعات النفسية والاجتماعية التي كانت تأخذ أشكالا سياسية وايدولوجية وتنتهي أحيانا بعمليات تصفية دموية.

⁵⁴ -Djamel-Eddine Bensalem, *Voyer nos armes voyez nos medecins*, ENAL, Alger, 1985, pp. 188-189.

⁵⁵ -Ibidem

ومن الأمثلة على ذلك ما جرى في منطقة النمامشة (الولاية الأولى)⁵⁶؛ إذ احتضنت مع بداية الثورة معقلا ثوريا نموذجيا، كان المجاهدون (الأوائل) فيه يعرفون بعضهم بعضا بشكل جيد، وذلك لانحدارهم من نفس القبيلة علاوة على وشائج القرابة والمصاهرة التي كانت تربط بينهم. وعزز ذلك معرفتهم الممتازة بالمنطقة وأعرافها وعاداتها، الأمر الذي كفل لهم دعما شبه مطلق من السكان المحليين. وكانت المحصلة أن غدا الجميع متلاحمين على قلب رجل واحد، سيما وأن هذا التلاحم كانت تغذيه مشاعر دينية قوية. بيد أن قدوم عناصر جديدة من المدن ابتداء من منتصف 1956، وإن أدى إلى تنامي تعداد وكفاءة التشكيلات الثورية الأولى، أضعف -في المقابل- تماسكها بسبب بروز صدامات بين أشخاص ذوي أخلاق وذهنيات وعادات متباينة تبعا لتباين تنشئتهم الاجتماعية... وسرعان ما تطورت تلك الصدامات إلى انشاقات داخلية، لتبلغ ذروتها مع رفض قيادة النمامشة السماح بمرور الأسلحة من الحدود التونسية إلى الأوراس والمنع المؤقت لتجنيد الطلبة⁵⁷.

وبعيدا عن منطقة النمامشة، نجد ذات السيناريو يتكرر وبحدة أشد في منطقة القبائل. إذ لم يلبث المجاهدون الأوائل وجلهم من اليمين ومحدودي التعليم والقرويين البسطاء... أن ألفوا أنفسهم في وضع هامشي إثر التحاق المتعلمين القادمين من المدن بصفوف الثورة، سيما بعد أن استفاد هؤلاء من ترقية سريعة ووصلوا في ظرف وجيز إلى مراتب قيادية عليا. وهذا الصدد يقول عبد العزيز وعلي: "...لم يمتز وقت قصير على ظهورهم في الميدان، حتى عدنا نحن -المجاهدين القدماء- في المؤخرة (علمناهم الوضوء وسبقونا إلى الحصيرة)، وكيف لا والمناصب الحساسة كلها في أيديهم، وهم قادة المناطق، ورؤساء النواحي، ومسؤولو الأقسام، وأمناء المقرات القيادية في مختلف المستويات، بل وصل بعضهم ليكون مستشار العقيد أعميروش"⁵⁸.

وكما هو متوقع، أحدث هذا الانقلاب الاجتماعي وما صاحبه من مظاهر تمييزية ومعاملات تفضيلية تقسيمات غير مسبوقة في جسم الولاية الثالثة، وأجج صراعا على خلفية ثقافية-اجتماعية بين فئة المجاهدين الأوائل المحدودي التعليم أو ذوي التكوين التقليدي (الديني) وجميعهم من أبناء الريف، وفئة القادمين الجدد إلى الجبل من خريجي الثانويات والجامعات الفرنسية والعديد منهم جاء من المدن. وفي إطار هذا الصراع، راح المجاهدون القدامى يتهمون بعض العناصر المتعلمة بالنط على المسؤوليات،

⁵⁶- هذا الرواية ننقلها من مذكرات الطبيب جمال الدين بن سالم وهو بدوره نقلها عن مجاهد يدعى دحيل حميد كان طالبا في الرياضيات والفيزياء ويقيم في منطقة قالمة، التحق بعد اضراب الطلبة في 1956 بمعقل الثورة منطقة النمامشة (التابعة للولاية الأولى)، إنظر: Ibid, pp. 26-27.

⁵⁷ -Ibidem

⁵⁸- عبد العزيز وعلي، المصدر السابق، ص 170.

والتكبر على عامة المجاهدين، وينسبون إليهم ممارسات لا أخلاقية، ويشككون في وفاءهم للثورة، كما أطلقوا عليهم ألقاب ساخرة من قبيل: أصحاب الأكف الناعمة، وأصحاب المناديل، وذوي السلاسل (لحملهم سلاسل ذهبية)⁵⁹. وفي المقابل، كانت العناصر المتعلمة تنعت خصومها بالجهل والجمود، وتتهمهم بالغيرة والحسد وحبك الدسائس ضدها⁶⁰. وسرعان ما عرف هذا الصراع منعطفًا دمويًا في إطار ما عرف بـ "المؤامرة الزرقاء"، ليذهب ضحيته المئات من المتعلمين من أبناء المدن. وبغض النظر عن حقيقة وجود المؤامرة المزعومة من عدمه، فإن الشيء المؤكد أن الاحتكاك بين الفئتين (قدامى المجاهدين من أبناء الريف والقادمين الجدد من المدن) أسهم بشكل كبير في بلورة الظروف الموضوعية لهذه المأساة.

وفي ذات السياق، جديرٌ بالإشارة أن من ضمن العناصر الحضرية التي التحقت بالريف، يوجد العديد من النساء. وخلافاً للرواية الرائجة التي تعتبر هذه الأخيرة عامل دعم صرف ومصدر نفع محض للريف الثائر⁶¹، فإن حضورها غير المعتاد في وسط رجالي الأساس، كان كذلك سبباً للعديد من القلاقل والصراعات. وهو ما يفسر -على سبيل المثال- قرار الولاية الثالثة في أواخر 1957 بترحيل العناصر النسائية المتواجدة في الجبل إلى الخارج⁶². ولفهم هكذا قرار في سياقه الموضوعي، لا مندوحة من التذكير ببعض الوقائع التي سبقتها وتلتها، على غرار إعدام أول رائد للاستعلامات (1957) في ظروف غامضة

⁵⁹- المصدر نفسه، ص ص: 161، 163.

⁶⁰- انظر مثلاً: Mohammed Benyahia, *La conjuration au pouvoir : récit d'un maquisard de*

l'ALN, Ed. ENAP, Alger, 1993, p 66.

⁶¹- ما ورد في المتن لا ينف الفوائد العديدة المترتبة عن انتقال المرأة الحضرية إلى الريف خلال الثورة، ولعل أهمها على الإطلاق هو ذلك التغيير المستديم في "النماذج الذهنية" السائدة بخصوص المركز الاجتماعي للمرأة الريفية. فلم تعد هذه الأخيرة مرادفة لـ "أخام" (أي البيت)؛ تلك اللفظة التي درج الرجل "القبائلي" -على سبيل المثال- على استخدامها عند ذكر زوجته في الأماكن العامة، وذلك باعتبار "أخام" هو الفضاء الطبيعي وشبه الحصري للمرأة. وهكذا أخذت النساء -في ظل الظروف الجديدة- يكتسحن تدريجياً الفضاء العام الذي بقي لقرون خلت من احتكار الرجال، بحيث أصبح منهن حتى "رئيسات النظام". وتسارعت وتيرة هذا التحول بعد انطلاق عمليات شال (1959-1960) التي نجم عنها إفراغ الريف من الرجال (الذين إما التحقوا بالجبل وإما نزحوا إلى المدن)، فهبت [عندها] النساء لإكمال المشوار... فكان منهن ممونات و مستخبرات وأعوان اتصال وأمينات المخابئ السرية... لذا فلا غرابة أن يدعي قرويو بني يني -كما ينقل عنهم وادي بوزار- بأن "النساء هنّ من كسب المعركة الأخيرة من الحرب ... ابتداءً من 1960.

⁶²- يحي بوعزيز، ، الثورة في الولاية الثالثة 1954-1962، دار الأمة، الجزائر، 2004، ص 321.

بدعوى علاقة مع إحدى المجاهدات، وعزل أول قائد للمنطقة الأولى (1957) وتنزله إلى رتبة جندي بتهمة مماثلة، ألخ... وتقرير ميرة في سبتمبر 1957 الموجه ضد عميروش والذي كَال له فيه عدة تهم من بينها ملازمة الممرضات في شتى تنقلاتهم⁶³... هذا دون أن ننسى كون مسلسل "مؤامرة الزرق" بدأ بصعود فتاة حضرية (روزة تاجير) إلى الجبل... كل ذلك جعل -على حد تعبير يحي بوعزيز- "الجنود يشيعون قائلين: الفتيات الجميلات للمسؤولين، ونحن عندما نتصل بأية امرأة في أية قرية يحكم علينا بالإعدام، وأثيرت مشكلة وجود النساء بالجبال خاصة بعد أن اعتدى بعض الجنود على بعض منهن، وحملن، وطلبن رخصة الاجهاض طبييا، وكثر القيل والقال".⁶⁴

ولا ينبغي أن يفوتنا التنبيه -أخيرا- إلى أن إحدى الوسائل الجهنمية التي مكنت القوات الاستعمارية من تحطيم تنظيمات جبهة التحرير في المدن هو زرع شبكات المخبين المؤطرة بضباط الاستعلامات، وهو ما اشتهر بـ "ظاهرة الزرق" التي أفضت إلى رحيل الثقة من القلوب وحلول الشك محلها بحيث أضى الناس يرتابون في أقرب أقرباءهم⁶⁵. ومع توطد العلاقة بين المدن والمعازل الثورية في الأرياف المجاورة -كما رأينا أعلاه- نشأت حالة سريرية سهلت انتقال عدوى تلك الظاهرة الخطيرة من الفضاء الأول إلى الثاني، وهو ما تمخضت عنه انعكاسات كارثية سيما في بيئة اجتماعية كان قوامها علاقات التضامن والثقة بين أفرادها.

وقد بلغت تلك الآثار الجانبية ذروتها مع أواخر 1958 ومطلع 1959، وصاحبها تراجع معتبر في دور المدن، لكن ابتداءً من النصف الثاني من سنة 1959 انطلقت عملية عكسية؛ حيث أخذ ذلك الدور يتعاظم بشكل سريع، وبالموازاة معه بدأ موقع المدن في المنظومة الثورية ينتقل من الأطراف إلى المركز، لكن كيف حدث ذلك؟

⁶³- Abderrahmane Mira, 07 octobre 1956, «Rapport sommaire sur les exactions... commises par les responsables ALN antérieurement au 20 aout 1956», in Archives SHAT 1H3909, Château de Vincennes, Paris, France.

⁶⁴- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 321.

⁶⁵- Djoudi Attoumi, Le colonel Amirouche, T2, P 204.

5- انعكاس العلاقة بين المدن والأرياف:

ابتداءً من الثلاثي الثاني من سنة 1959، بلغ ضغط الجيش الاستعماري على المعازل الريفية مستوى غير مسبوق، وجرى ذلك -بالأخص- في إطار مخطط شال⁶⁶؛ حيث تضاعفت عمليات التمشيط، وقنبلة القرى، والاعتقالات الجماعية، والاستنطاقات الوحشية، والإعدامات العشوائية، والحصار التمويني، إلخ... واقترن كل هذا بتوسع كبير في إنشاء المناطق المحرمة، مع ما يقتضيه ذلك من تدمير لمئات القرى، وتهجير قسري لسكانها، وتجميعهم في معسكرات محاطة بأسلاك شائكة (محتشدات). أما القرى التي نجت من التدمير، فلم يبق فيها سوى النساء والأطفال والعجزة، بينما اضطر الرجال إما إلى الالتحاق بالجبال، أو الهجرة إلى المدن، أكان ذلك بمفردهم أو مصحوبين بعوائلهم، ما أطلق عملية نزوح لا مثيل لها في تاريخ البلاد، وساهم في تضخيم قياسي للأحياء القصديرية المنتشرة حول المدن⁶⁷. وقد قدر كل من "صياد" و"بورديو" نسبة سكان الريف الذين اضطروا إلى ترك أماكن إقامتهم الاعتيادية سنة 1960 بما

⁶⁶ - سمي بـ "مخطط شال" نسبة إلى واضعه الجنرال شال وقد بدأ العمل به في مارس 1959 واستمر إلى غاية مطلع 1960، وتضمن عدة عمليات كبيرة مثل: عملية التاج، عملية الشرارة، عملية المنظار، عملية اللؤلؤة... وركزت كل عملية على منطقة محددة. وكانت تستهدف تدمير جيش التحرير الوطني أو على الأقل إضعافه إلى أقصى حد ممكن، وذلك من خلال تكثيف عمليات التمشيط باستخدام حشود ضخمة من القوات، مدعومة بوسائل وآليات متطورة ووفق أسلوب "الحركة الهجومية". ما أدى إلى عرقلة نشاط جيش التحرير الوطني لما يزيد عن سنة، وأحدث خسائر بشرية كبيرة في صفوفه بين قتلى وجرحى وأسرى... هذا إلى جانب حجز كميات معتبرة من الأسلحة والذخيرة... لكن الأخطر، كان عزله (أي جيش التحرير) عن الحاضنة الشعبية عبر تدمير مئات القرى، وتهجير سكانها قسرا، وتجميعهم في معسكرات محاطة بأسلاك شائكة (محتشدات).

⁶⁷ - انظر: - عبد العزيز وعلي، 2011، أحداث ووقائع في تاريخ الثورة بالولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، الجزائر، ص 287.

-Mohammed Teguia, *L'Algérie en guerre*, OPU, Alger, 1988, pp 257-309.

- Amar Azouaoui, *Recits et témoignages : Jumelles le déluge en Kabylie*, Ed. EL Amel, Tizi-Ouzou, Algérie, 2009, p 167.

-Henri Le Mire, *Histoire militaire de la guerre d'Algérie*, Ed. Albin Michel, Paris, 1982, pp 256-274.

يقارب النصف (حوالي 50 ٪)، ما يشرح هذه العملية -وفق ذات الباحثين- لتكون إحدى أعنف عمليات النقل الجماعي للسكان في التاريخ البشري⁶⁸.

وعليه، فإنه كما أدى فشل "معركة مدينة الجزائر" (1957) إلى تحطيم شبكات الدعم اللوجستي للثورة في المدن ونزوح واسع لعناصرها الفارة من القمع إلى الجبال والأرياف، أدت عمليات شال (ابتداءً من 1959) إلى حركة مماثلة لكن في الاتجاه المعاكس؛ حيث قوضت معظم قواعد الدعم الشعبي للثورة في الأرياف، ودفعت أعداد هائلة من سكانها إلى الهجرة نحو المدن. وبالنسبة، فإنه عكس ما ترتب عن الحالة الأولى من تحجيم دور المدن في المنظومة الثورية، أدت الحالة الثانية إلى ترشيح المدن للعب أدوار مركزية، وهو ما جسده بوضوح "مظاهرات ديسمبر 1960"، التي كانت إيذاناً ببداية عودة مركز ثقل الثورة من الريف إلى المدينة.

فقد شكلت المظاهرات العدائية لغلاة الكولون بمناسبة زيارة ديغول للجزائر مع بداية ديسمبر 1960 استفزازاً قوياً للجماهير الجزائرية الحضرية، فهبت لأول مرة وبأعداد ضخمة لتحتل الشوارع في عدة مدن كالجزائر ووهران وعنابة وقسنطينة... حاملة العلم الوطني ومنادية بالاستقلال وصاعدةً بدعمها المطلق لجبهة وجيش التحرير الوطنيين. وعلى الرغم من العنف الذي جوهبت به هذه المظاهرات والذي خلف -حسب أرقام الإدارة الاستعمارية- 120 شهيد⁶⁹ وحوالي 500 جريح، استمرت من 10 ديسمبر إلى غاية 16 ديسمبر 1960. وأدت -في المحصلة- إلى قلب معادلة الصراع في الجزائر بشكل جذري؛ إذ شكلت دعماً منقطع النظير لجيش التحرير الوطني الذي كان في وضعية حرجة ويتمده الانهك، فجعلته يستيقظ دنو النصر، فاستعاد زمام المبادرة وأخذ يكثف الهجومات والكمائن ضد أهداف العدو. وفي المقابل، مثلت هذه المظاهرات الهادرة صدمة قوية بالنسبة للجيش الفرنسي الذي انتبه إلى عبثية العمليات العسكرية والأنشطة المختلفة التي كان يقوم بها في سبيل فصل الشعب الجزائري عن ثورته، حتى نعتها (أي

⁶⁸ -Pierre Bourdieu et Abdelmalek Sayad, *Le déracinement, la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie*, Les Editions Minuit, Paris, 1964, p 13.

⁶⁹ -الخسائر البشرية في صفوف المدنيين الجزائريين في هذه المظاهرات حسب البيان الرسمي للإدارة الاستعمارية، كانت كالتالي:

° 96 قتيلاً و370 جريحاً في مدينة الجزائر

° 18 قتيلاً و100 جريحاً في مدينة وهران

° 4 قتيلاً و15 جريحاً في مدينة عنابة

نقلاً عن: سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص 188.

المظاهرات) أحدهم بـ "ديان بيان فو معنوي"⁷⁰، مضافاً: "في 16 ماي 1958 لم نكن نتحكم في الوضع العسكري... والكل (يقصد الجماهير الحضرية) كان يهتف "تحيا فرنسا"، بينما اليوم وقد انتصرنا على الصعيد العسكري، الكل يهتف "تحيا جبهة التحرير الوطني"⁷¹.

بيد أن هذه المفارقة -في الحقيقة- لا تظهر كذلك إلا بسبب التركيز على التجليات السياسية-العسكرية للوقائع والتغاضي عن خلفياتها الاجتماعية. لذا يكفي أن ندرك أن الصراع الحقيقي إنما كان يعتمل في أعماق المجتمع وما يبرز على السطح من تطورات سياسية وعسكرية محض امتدادات له، لتنبش تلك المفارقة وتتلاشى معها دواعي التعجب. وفي ضوء ذلك يصير الموقف المنسوب إلى الجماهير الحضرية في 1958 مفهوماً للغاية، إذ أن جبهة التحرير وعلى الرغم من تفوقها الكبير حينئذ في عالم الريف بفضل الدعم القوي الذي ما برحت تحظى به في أوساط الفلاحين وسكان البوادي، كانت قد خسرت منذ 1957 معركة المدن... وفي المقابل، في أواخر 1960 ومع أن القوات الاستعمارية حققت "انتصارات كبيرة" على حساب المعازل الثورية في الريف، غير أنها لم تستطع تحويل ذلك المكسب العسكري إلى حضور اجتماعي دائم، فكان البديل ضمان تواصل حضورها العسكري المكثف في الجبال والبوادي لأمد طويل، وهو ما لم تكن تطيقه بحال لكلفته المادية والبشرية الباهضة، وبالتالي استحالة نصرها العسكري إلى مجرد سحابة صيف عابرة... وأسوأ من ذلك أفضى الضغط العسكري الكبير على الأرياف إلى نزوح كثيف للقوى المجتمعية الريفية المؤيدة -بفطرتها- للثورة إلى المدن، ما تسبب في اختلال الموازين الديمغرافية⁷² والاجتماعية الهشة فيها لصالح الثورة، ولم تكن المظاهرات الحاشدة التي انفجرت

⁷⁰ - لتفاصيل أكثر، ينظر على سبيل المثال:

- محفوظ قداش، وتحررت الجزائر، تر العربي بوينون، دار الأمة، الجزائر، 2011، ص-ص: 233-244.

- لخضر بورقعة، المصدر السابق، ص 29.

- عبد القادر نور (إشراف)، حوار حول الثورة، الجزء 2، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام، الجزائر، 1986، ص ص: 323-378.

⁷¹ - جريدة لوموند 15 ديسمبر 1960، نقلاً عن: Gilhert Meynier, Op.Cit, p 367.

⁷² - أدت الهجرة الريفية التي بلغت مستويات قياسية أثناء حرب التحرير إلى تضاعف سكان مدينة الجزائر ثلاث مرات خلال فترة حرب؛ بحيث قفز من أزيد من 300 ألف نسمة سنة 1954 إلى أكثر من 900 ألف سنة 1960 وإلى 980 ألف سنة 1962.

في ديسمبر 1960 وتكررت في مناسبات عدة⁷³ الى غاية وقف اطلاق النار سوى تعبيراً عن بلوغ الاختلال المشار إليه درجته الحرجة.

وعليه، ما كان يبدو في الظاهر عملية تريف للمدن، كان في العمق عملية أسلمة وبالتالي جزأة لها قادت تدريجياً الى النهاية المحتومة لأحد أعنى أنواع الاستعمار الاستيطاني. والغريب أن هذه العملية التي بدأت في ثلاثينات القرن العشرين، وتسارعت مع انطلاق الثورة، انتقلت منذ 1959 الى السرعة القصوى بفضل النشاط العسكري المكثف للاستعمار في الريف على أمل القضاء على الثورة، فكان كمن سعى الى حتفه بظلفه.

وها هنا يستوقفنا تحول لافت؛ ألا وهو انتقال المدينة من ذلك الوضع الهامشي الذي ألفت نفسها فيه غداة انطلاق الثورة الى "قلب المعركة" ومركز الأحداث؛ بحيث أضحت -الآن- تضطلع بالدور الرئيس في عملية حسم الصراع مع الاستعمار. ما يضعنا -كرةً أخرى- وجهاً لوجه مع التساؤلات التي طرحناها في مقدمة هذه الدراسة بخصوص حقيقة العلاقة بين المدينة والريف في هكذا سياق ثوري؟

6- نحو منظور جديد:

للإجابة على الاستفهامات المشار إليها أنفاً، لا مناص -إبتداءً- من تسجيل الايضاحات المنهجية التالية:

1- يبين الاستقراء التاريخي خطأ النظر الى كل من المدينة والريف بوصفهما محتويات بشرية شبه ثابتة، بل هما -على الأصح- مجرد أطر اجتماعية تتغير محتوياتها البشرية باستمرار، وأحد الاسباب الرئيسية لهذا التغير المستمر هو وجود نوع من السيولة البشرية بين الإطارين، بحيث يمكن تشبيههما بالأواني المستطرقة. لكن هذا لا ينفي من ان كل إطار (المدينة أو الريف) يقوم مع الوقت بقولية وإعادة صياغة المحتويات البشرية الوافدة إليه بما يتماشى مع قواعده الخاصة.

⁷³- تكررت المظاهرات الشعبية الحاشدة في المدن في عدة مناسبات منذ ديسمبر 1960، كما توسعت لتغطي العديد من مدن البلاد، ويمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر المظاهرات التي نظمت سنة 1961 بمناسبة أحياء ذكرى حوادث الـ 8 ماي وقد مست عدة مدن مثل: الميلية والتلاغمة....، وكذا مظاهرات أخرى بمناسبة الذكرى السابعة لانطلاق الثورة (نوفمبر 1961) وقد مست عدة مدن مثل: تبسة، بجاية، رأس العين، المدينة، الجلفة، التلاغمة، الأصنام، بسكرة، الونزة، العاصمة، وهران، مستغانم، قسطنطينة، مسيلة، بوسعادة، الحروش، سكيكدة، بريكة، عنابة، الميلية، شرشال... لتفاصيل أكثر بخصوص هذه المظاهرات، ينظر: - جريدة المجاهد، الجزء الرابع، العدد 107 خاص، 13 نوفمبر 1961.

2- لا ينبغي أن نغفل عند دراسة ثنائية (المدينة-الريف) في السياق الاستعماري وجود تداخل ولُبس بينها وبين ثنائية أخرى مختلفة عنها تماما لكنها متشابكة معها بشكل كبير، ألا وهي ثنائية (الكولون-الأهالي)، بحيث نجد المدينة تشير -في الغالب- إلى الكولون، بينما يكاد الريف يدل -حصرا- على "الأهالي". ومرد ذلك إلى أن الجزائر أواخر العهد العثماني وتحت تأثير التراجع الاقتصادي والضعف السياسي... عرفت تناقصا كبيرا في تعداد سكان المدن، فلم تكن نسبتهم غداة الاحتلال (1830) تتجاوز 5% ⁷⁴ أضف إلى هذا القيام الإدارة "الاستعمارية" لاحقا بتمهيش أغلب المدن التقليدية (كندرومة، ميله، مليانة، بجاية...) لعدم تجاوبها مع انشغالاتها الاستراتيجية، وأنشأت -في المقابل- شبكة جديدة من المدن لمراقبة بعض المجالات والتحكم فيها (كباتنة، تيزي وزو، بلعباس، شلف...) ⁷⁵. كل هذا جعل من المدينة -في الغالب- فضاءً كولونياليا شبة خالص ⁷⁶، واستمر ذلك إلى غاية بداية اندفاع الجزائريين نحو المدن ابتداءً من 1930 تحت تأثير الأزمة الاقتصادية الكبرى ومضاعفاتها المتعددة الأبعاد. وعلى ضوء هذا، يمكن أن نفهم الاسهام الكبير للريف في الفعل الوطني بالمقارنة مع المدينة على أنه تناسبي مع الحضور الديمغرافي للأهالي في كل منهما، كما أن تنامي ذات الفعل (أي الوطني) في المدن منذ 1930 كان يتناغم طرديا مع تنامي الحضور الديمغرافي "للأهالي" في نطاقها والذي بلغ 25% في 1954 وقارب 36% مع دنو نهاية حرب التحرير.

وفي ذات السياق، فإن العديد من الاستنتاجات التي خلص إليها بعض الدارسين بخصوص الحضر إبان المرحلة الاستعمارية على غرار ما ذهب إليه مالك بن نبي من أن ساكن المدينة "...يحمل روح الهزيمة بين جوانحه، فقد عاش حياته دائما في منحدر المدينة، إذ هو دائما في منتصف طريق ومنتصف فكرة ومنتصف تطور، لا يعرف كيف يصل إلى هدف؛ إذ هو ليس (نقطة الانطلاق) في التاريخ كرجل الفطرة، ولا (نقطة انتهاء) كرجل الحضارة، بل هو (نقطة تعليق) في التطور وفي التاريخ وفي الحضارة... (فهو ليس) مستعدا إلا لنصف جهد ونصف اجتهد ونصف طريق" ⁷⁷. فهذه الأحكام تكون مقبولة أو على

⁷⁴- مارك كوت، الجزائر مجال ومجتمع، تر بوجمعة خلف الله، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2015، ص 95.

⁷⁵- المرجع نفسه، ص-ص: 95-96.

⁷⁶- فإذا أخذنا -مثلا- مدينة سكيكدة، نجد عدد المسلمين فيها سنة 1866 لا يتجاوز 550 نسمة مقابل أزيد من 10500 مستوطن، ليرتفع في ثلاثينات القرن 20 إلى 23266 مسلم مقابل 23173 مستوطن وفي 1954 إلى 41400 مسلم مقابل 30300 مستوطن. انظر: Mohammed Harbi, *L'Algérie et son destin*, 1994, p 234.

⁷⁷- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004، ص 82.

الأقل قابلة للنقاش في حدودها التاريخية، أي بوصفها مضاعفات للظاهرة "الاستعمارية" أكثر منها نواتج للظاهرة الحضرية.

3- تبدو ثنائية (الريف-المدينة) من منظور التفكير المنطقي التقليدي كثنائية ضدية عدائية، وذلك لقيام هذا المنظور على التفكير الخطي الذي لا يأخذ عنصر الزمن في الحسبان في ارتباط السبب بالنتيجة، كما يعجز عن التعامل مع المرجعية الذاتية. أما إذا اعتمدنا منطقاً مرناً يقوم على التفكير في حلقات ويتخذ موقفاً شاملاً خارج الإطار المرجعي، فإن التضاد والعدائية بين طرفي الثنائية السابقة سيتحولان إلى تناغم وتكامل. وحينها ستبدو المدينة كمصدر للأفكار والكفاءات، والريف كمصنع للرجال والإرادات، وكلاهما لا يكتمل إلا بالآخر. إذ تمدّ المدنُ الأريافَ بالبرامج السياسية والكفاءات المؤهلة وأساليب التنظيم وطرائق العمل... الكفيلة بتفعيل المخزون الهائل من الخامات الثورية الكامنة فيه. وفي الحين ذاته، ترفد الأريافُ المدنَ بخمائر بدوية تحمل فطرة عذراء مقرونة بروح قتالية تزيدها نقاوة وتجديراً، والتي بفضلها وبفضلها فقط تستطيع المدينة نقل أفكارها الثورية من مستوى القوة والاستعداد إلى مستوى الفعل القائم هنا والآن. وكلاهما إذا بُثرت صلته بالآخر انتكس معنويًا وتكلس عمليًا وبالتالي فقد فاعليته.

وتعضد الوقائع التاريخية هكذا استنتاجات، إذ تزامن عودة الفعل الوطني إلى الظهور على ركح الأحداث مع انطلاق تفاعل مجتمعي لافت بين عالم المدن وعالم الأرياف منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وبالأخص في أعقاب أزمة 1930، واستمر ذلك الفعل في التطور على ايقاعات هذا التفاعل إلى غاية الاستقلال في 1962. وذلك إلى حدٍّ يصحُّ معه الادعاء بأن وتيرة تطور الفعل الوطني (بالأخص بين 1930 و1962) لم تكن -في أحد جوانبها على الأقل- سوى ترجمة سياسية لإيقاع التفاعل المجتمعي بين المدينة والريف. وهو ما يعني أيضاً أن التطورات الحاصلة في أحد الفضائين أكانت المدينة كما هو الحال أبان مرحلة الحركة الوطنية أو الريف مع بدايات الثورة، لا يرتبط بما يجري في الفضاء المعني أو في الفضاء المقابل وإنما بالتفاعل بينهما.

وفي هذا السياق، يمكن استدعاء العديد من الأمثلة التاريخية كشواهد على ذلك، على غرار الديناميكية السياسية التي عرفتتها مدينة سكيكدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين والتي لم تكن في المحصلة سوى صدى للتحويلات الاجتماعية التي كانت تعتمل داخل المدينة وفي محيطها، والناجمة - بالأساس - عن ظاهرة الزواج الريفي⁷⁸. إذ أخذ يتشكل في المدينة مع أواخر الثلاثينات فرع لحزب الشعب، لكن الغريب أن ذلك جرى في منطقتين منفصلتين عن بعضهما البعض: إحداهما في وسط المدينة والأخرى في ضاحية الاسبيرانس (الأمل). وظلت هذه العملية تتبلور ببطء، لكن منذ 1940 أخذت تتسارع تحت

⁷⁸ - Mohammed Harbi, Op.Cit., pp : 235-237.

وطأة التريف المتنامي للمدينة، وترافق ذلك مع انتقال مركز ثقل الحزب محليا من وسط المدينة حيث يختلط الحضر وقدامى الوافدين من الريف مع الكولون... الى ضاحية الاسبيرانس (الأمل) المتميزة بالحضور المكثف وشبه الحصري للمسلمين إضافة إلى تحولها - في هذه الفترة- الى محضن للأعداد الكبيرة والمتزايدة من النازحين حديثا من القرى والبوادي المجاورة. وهو ما دفع الى تجذير أكبر للمواقف السياسية للفرع واستخدام أوسع للمعطى الديني في التعبئة الجماهيرية... وفي 1955 عندما يلتحق أزيد من 70 مناضل من الفرع المحلي للحزب بمعقل الثورة، فإن جلهم بل كلهم (عدا اثنين) كانوا من الفريق الثاني.⁷⁹

هذا المسار -في الواقع- لم يكن خاص بمدينة بعينها وإنما شاملا لجلّ المراكز الحضرية مع اختلافات شكلية طفيفة ناتجة عن الظروف الخاصة بكل حاضرة. ويؤكد ذلك -على سبيل المثال لا الحصر- تطور التيار الاستقلالي على مستوى عاصمة البلاد؛ فقد تركزت معاقله -بشكل أساسي- في حيّين رئيسيين هما القصبة وبلكور، واللافت أنهما ذات الحيّين اللذين قصدتهما -ابتداءً- النازحون من الريف على مستوى هذه المدينة.⁸⁰ وإذا كان حيّ القصبة قد حاز الأسبقية في هذا المضمار؛ حيث شهد ميلاد أول فرع لنجم شمال افريقيا أواخر 1930⁸¹، فإن ذلك يمكن فهمه على ضوء ثلاث عوامل أساسية هي: الطابع الأهلي الصرف للحي المعني الى جانب ثقله الديمغرافي المعتبر وبالخصوص انفتاحه على العمق الريفي للبلاد؛ إذ قفزت كثافته السكانية من 2819 فرد في الهكتار الواحد عام 1931 الى ما يقارب 3500 عام 1947 حتى أضحت الغرفة الواحدة تأوي ما بين 13 و14 شخصا.⁸² إلا أن ابان سنوات الحرب العالمية الثانية، بدأ

⁷⁹ -Ibid, p 246.

⁸⁰ - أحمد رضوان شرف الدين، ص 126

⁸¹ - في أواخر 1930 تشكلت أول خلية لنجم شمال افريقيا على مستوى مدينة الجزائر، وكان ذلك في حي القصبة وبمبادرة من مجموعة من شباب الحي على رأسهم مسطول وبن سماعيل والأخوة دحمون... وأخذ هذا التنظيم شكل لجنة دعم لجريدة الامة (الصادرة عن النجم). لكن سرعان ما بدا ذلك غير كافي لشباب حي سوسطارة (القصبة) الذين حوّلوا تنظيمهم الى حزب سموه "الحزب الوطني الثوري" (وهو يتبع النجم)... ما أدى الى تزايد عدد المناضلين، وتأسست خلايا وقسمات جديدة مثل قسمة نقابة عمال ترامواي الجزائر ومن أعضائها مزغنة وخيضر... وقسمة نقابة عمال السكك الحديدية ومن أعضائها دوار ومسعود... انظر : Mahfoud Kadache, *Histoire du nationalisme Algérien 1919-1951*, Tom 1, SNED, Alger, 1981, p,p : 270, 355.

⁸² - أحمد رضوان شرف الدين، ص 126

مركز ثقل التيار الاستقلالي على مستوى العاصمة يتزحزح بإتجاه حي بلكور⁸³. وكان وراء ذلك اعتبارات سياسية⁸⁴، لكنها -على الأرجح- مجرد ترجمة لمعطيات اجتماعية أعمق، أهمها انفتاح حي بلكور والاحياء المجاورة له (كلو صالومي، محي الدين، إلخ...) في هذه الفترة أكثر من غيره على عالم الريف، وذلك ليس لأن أغلب سكانه من القادمين حديثا (أي في سنوات الحرب العالمية الثانية) من الريف فحسب، ولكن كذلك لتوفره -عكس حي القصبة- على فضاءات قادرة على احتضان أحياء قصديرية جديدة وبالتالي استقبال نازحين ريفيين اضافيين⁸⁵.

وهو ما عجل بتحول الحي المذكور (بلكور) منذ مطلع الاربعينات الى معقل للاتجاه الأكثر راديكالية في التيار الاستقلالي (جناح دباغين-بودة)، وممثل للاتجاهات الثورية (بلوزداد، محساس، يوسف، ديدوش...)، ومحضن للعديد من الاجتماعات الحاسمة بالأخص مؤتمر فيفري 1947 الذي شهد تأسيس المنظمة الخاصة واجتماع 22 الذي قرر تفجير الثورة، ومصدر كل المشرفين وأغلب المشاركين في عمليات

⁸³- تشير العديد من الروايات (بن خدة، عبدون، لحول، أيت أحمد...) بروز مجموعتين متصارعتين على مستوى قيادة حزب الشعب في هذه الفترة. كان نفوذ المجموعة الأولى يتركز في القصبة وأبرز عناصرها: عسلة، طالب، شرشالي، عمران، عبدون، سيدعلي... أما المجموعة الثانية فكان لها نفوذ واسع في حي بلكور وتلقى تعاطفا كبيرا في منطقة القبائل والقطاع القسنطيني، وأبرز قادتها دباغين، بوقادوم، بودة، فيلاي... لمعلومات أكثر يُنظر:

- حسين أيت أحمد، روح الاستقلال مذكرات مكافح، تر. سعيد جعفر، منشورات البربخ، الجزائر، 2002، ص: 96-97.

- مصطفى سعداوي، المنظمة الخاصة ودورها في الاعداد لثورة أول نوفمبر 1954، دار الأوراق الزرقاء، الجزائر، 2009، ص: 52-53.

⁸⁴- من تلك الاعتبارات كون أغلب قادة الحزب من مجموعة القصبة أعضاء في "لجنة العمل الثوري لشمال إفريقيا" C.A.R.N.A. التي سعت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى الحصول على مساعدة من المحور لتفجير الثورة في الجزائر، وفصلت من الحزب نتيجة لذلك.

⁸⁵- يمكن أن نضيف الى المعطى المذكور في المتن معطى آخر من الاهمية بمكان، وهو وضع حي بلكور كحي مختلط نظريا، ما يعني -عمليا- أنه كان حيا لمجتمعين منفصلين سوسيولوجيا وفضاءيا، الأمر الذي ما برح يزيد في حدة الاستقطاب بين الكتلتين المتساكنتين والمتناقضتين معا ويدفع نحو المزيد من المواقف الراديكالية لدى نشطاء الحي.

ليلة أول نوفمبر 1954 على مستوى مدينة الجزائر⁸⁶ ... وأخيرا وليس آخرا منطلق مظاهرات ديسمبر 1960 التي شكلت منعرجا هاما في تاريخ الثورة ومسرعا حاسما لمسار الاستقلال.

وهكذا نلاحظ وجود ثابت في علاقة المدينة مع الريف طوال فترة الكفاح ضد الاستعمار (1930-1962) وهو تكاملهما، مشفوعا بمتغير أساسي يتمثل في حدوث تبادل الادوار بينهما تبعا لطبيعة كل المرحلة. فقد كان دور الريف مُعَزِّزا لدور المدينة إبان مرحلة الكفاح السياسي، لكن مع بداية الثورة، أضحي الريف هو من يضطلع بالعبء الأكبر من الكفاح (المسلح) بينما تمحور اسهام المدينة حول الدعم اللوجستي (تموين، تمويل، كواد، معلومات...) أما دورها العسكري فاقصر على "الفداء" الذي يحمي العمل اللوجستي ولا يحل محله. ومن الجدير بالتنويه أن أي مسعى لتجاوز هذا التوازن بين الدورين كان مآله الفشل الذريع، وهو ما أكدته -على سبيل المثال- تداعيات ما عرف بـ "معركة مدينة الجزائر" سنة 1957⁸⁷، إذ لم تكتف بتحطيم نظام الثورة في العاصمة وتجييف موارد الدعم اللوجستي لمعاقلة الثورة في الأرياف المجاورة، بل أدت كذلك الى انتقال ظاهرة الزرق وأثارها المدمرة الى معاقل الولاياتين الثالثة والرابعة. ومرد ذلك الى أن الرهان الاساسي لحرب التحرير (الجزائرية) لم يكن السيطرة على الأرض وإنما التحكم في المجتمع، ما يعني أنها لم تكن نزاعا مسلحا يحكمها المنطق العسكري إلا بالتبعية، أما في الأصل فهي صراع اجتماعي يخضع -بلغة ابن خلدون- لطبائع العمران وأحوال الاجتماع.

هذه الحقيقة (هي) ذاتها ما ذهل عنه الجيش الفرنسي، إذ بعد أن استتب له الأمر نسبيا في المدن شنّ ابتداءً من 1959 -كما مضت الإشارة أعلاه- حملات عسكرية ضخمة على معاقل الثورة في الريف في اطار مخطط شال. وصحيح أنه حقق انتصارات ميدانية معتبرة، لكنه سرعان ما ألقى نفسه في موقف مزدوج الاستحالة؛ إذ لا سبيل للحفاظ على انتصاراته ومكتسباتها إلا بتحقيق أحد الشرطين:

- إما تحويل النصر العسكري الى حضور اجتماعي دائم، وهو أمر مستحيل تاريخيا وديمغرافيا وسوسيولوجيا؛ لأن معركة الاستيطان الريفي (الزراعي) كانت قد حسمت منذ ثلاث عقود (1930) لصالح الجزائريين.

- وإما ضمان استمرار الحضور المكثف لقواته في الفضاء الريفي المترامي الأطراف والى أجل غير منظور، وهو ما يعني استنزاف قاتل لطاقات الجيش وإمكانات الاقتصاد الفرنسيين.

وأسوا من ذلك، لم يكن يستطيع حتى العودة الى الوضع القائم سنة 1959، إذ بضغطة الكبير على الريف أدى الى انتقال واسع لقوى مجتمعية موالية للثورة ومستعصية عن الضبط الى المدينة. فكانت

⁸⁶ - نذكر على سبيل المثال: زبير بوعجاج، محمد مرزوقي، عثمان بلوزداد، ألخ

⁸⁷ - نقصد محاولة نظام الثورة على مستوى مدينة الجزائر أواخر 1956 ومطلع 1957 التوسع في العمل الفدائي بحيث يتحول الى ما يشبه حرب عصابات المدن.

النتيجة أنه من حيث أراد محاصرة الثورة في الريف، فرض الحصار على نفسه في المدينة، وبديل القضاء على معاقل الثورة في البوادي والجبال، زعزع معاقل الاستيطان في المراكز الحضرية، فكان التسريع بنهاية استعمار استيطاني دام أزيد من قرن وثلاثين سنة.

- خاتمة:

الى هنا نخلص الى أن كل من المدينة والريف أثناء الثورة شكلتا ظاهرتين متعارضتين وموحدتين في آن واحد، بل إن تعارضهما كان سر تكاملهما، وتكاملها شرط فاعليتهما. وبخصوص دور المدينة الذي يهمنى -هنا- أكثر من سواه، فإنه وإن بدا هامشيا مع بداية الثورة، فما ذلك إلا لأن طبيعة الكفاح ضد الاستعمار في هذه المرحلة اقتضت أن ينتقل مركز ثقله الى الريف، ومعه انتقلت الافكار التي تبلورت من قبل في المدينة والكوادر التي تكونت فيها. وعندما بلغ الكفاح المسلح بوصفه أحد أشكال الثورة التحريرية درجته الحرجة، وحين أوان استدعاء أشكال جديدة سيما العمل الجماهيري، بدأ مركز الثقل المشار إليه يعود تدريجيا الى المدينة، وأخذت هذه الأخيرة تستعيد معه دورها المركزي. ولم يكن الريف غائبا عن هذا التحول الجديد، إذ ما كان ليتّم لولا الاسهام الرئيس لجحافل النازحين من قراه ومداشره. وجملة القول أن فاعلية المدينة كما الريف لا تكمن في ذات أي منهما وإنما في تكاملية العلاقة بينهما على وقع الديناميكية التاريخية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الأرشيف:

- Abderrahmane Mira, 07 octobre 1956, «Rapport sommaire sur les exactions... commises par les responsables ALN antérieurement au 20 aout 1956», in **Archives SHAT 1H3909**, Château de Vincennes, Paris , France.

- C.A. Constantine, Zone Ouest Constantinois, rapport de renseignements sur activités rebelle, décembre 1961, in **Archives SHAT, 1H1643**.

- Etat Major de guerre, Willaya 3, Directives générales parues le 11 mars 1961, in **Archives SHAT, 1H 3417**.

- Etat Major de guerre, Willaya 3, Directives générales parues le 1 aout 1961, in **Archives SHAT, 1H 1643**.

- Mohand Younsi, Lettre à Si Belaid (Responsable FLN- Willaya 3), in **Archives SHAT 1H 1643**.

- Ministère de l'intérieur, DGSN, rapport sur la neutralisation de l'organisation rurale et urbaine de Bouira (Grande Kabylie), le 5 février 1962, in **Archives SHAT, 1H 1643**.

- Monographie de la ville de Sétif, année 1952, p 3, in **Archives CAOM 93/ 4207 et 4208.**
- Monographie sommaire de Bougie chef lieu de la Petite Kabylie, in **Archives CAOM 93/ 4207-4208.**
- P.R.G. de B.B.Arredj, deux correspondances du F.L.N. saisis dans le secteur de B.B.A, le 9 juillet 1957, in **Archives CAOM 93-4415.**
- P.R.G. district d'Alger, activités sur le plan criminel des P.P.A-M.T.L.D, in **Archives C.A.O.M. 91I F 525.**
- Willaya 3, Divers correspondances entre les responsables de la W3 et Si Rachid chef de la Zone 5-willaya 3 (ville d'Alger) durant l'année 1961, in **Archives SHAT, 1H1643.**
- Willaya 3, **PV de réunion du comité de la Willaya 3, mai 1958.** (Archives privés)
- Willaya 3, Zone 4, P.V. de réunion zonale du 25 et 26 février 1960, in **Archives SHAT 1H 3417.**
- Zone Ouest Constantinois et 19° D.I, secteur de Bougie, Renseignements (accord de la Nahia 3.2.4 et la Mintaka 3.1 sur le destin de la ville de Bougie, 1° aout 1961, in **Archives SHAT, 1H 1643.**

2- المطبوعات:

آ- باللغة العربية:

- الأشرف (مصطفى)، الجزائر: الأمة و المجتمع، ت حنفي بن عيسى، م.و.ك، الجزائر، 1983، 486 ص.
- أمقران الحسيني (عبد الحفيظ)، من مسيرة النضال والجهاد، دار الأمة، 2010، 191 ص.
- أيت أحمد حسين، روح الاستقلال مذكرات مكافح، تر. سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر، 2002.
- ايشبوزان (العربي)، مدينة الجزائر: تاريخ عاصمة، تر. مسعود جناح، دار القصبة، الجزائر، 2007.
- بلحسن (مبروك)، المراسلات بين الداخل و الخارج (الجزائر- القاهرة) 1954-1956، دار القصبة، الجزائر، 2004، 352 ص.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، تاريخ العبر، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
- بن نبي مالك، شروط النهضة، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004.
- بن سالم (جمال الدين)، أنظروا الى أسلحتنا... أنظروا الى أطبائنا... وقائع المنطقة الأولى بالولاية الثالثة متبوعة بملحمة سي حميمي، موفم للنشر، (الجزائر)، 2011، 368 ص.

- بوالطمين (جودي الأخضر)، لمحات من ثورة الجزائر، ط2، المؤسسة الجزائرية للكتاب، الجزائر، 1987، 302 ص.
- بلوفة عبد القادر (جيلالي)، 2008، حركة الانتصار في عمالة وهران: الخروج من النفق 1950-1954، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان.
- بورقعة (سي لخضر)، شاهد على اغتيال الثورة، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 1990، 276 ص.
- بوعزيز (يحي)، الثورة في الولاية الثالثة 1954-1962، دار الأمة، الجزائر، 2004، 461 ص.
- جفلول عبد القادر، أعمال عبد القادر جفلول، المجلد الأول: "تاريخ الجزائر والمغرب العربي"، تر: فضيلة حكيم وفيصل عباس، الجزائر، 2013.
- وعلي (عبد العزيز)، أحداث ووقائع في تاريخ ثورة التحرير بالولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، الجزائر، 2011، 502 ص.
- حربي (محمد)، الثورة الجزائرية : سنوات المخاض، تر نجيب عياد و صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر، 1994، 201 ص.
- كافي على، مذكرات الرئيس علي كافي، دار القصبة، الجزائر، 2011.
- كشيدة (عيسى)، مهندسو الثورة، تر: موسى أشرشور، منشورات الشهاب، الجزائر، 2003، 232 ص.
- كوت مارك، الجزائر مجال ومجتمع، تر بوجمعة خلف الله، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2015.
- مشاطي (محمد)، مسار مناضل، تر زينب قبي، منشورات الشهاب، باتنة الجزائر، 2010، 239 ص.
- مجلة أول نوفمبر، "مدينة سطيف... ملتقى الولايات" (ندوة بمشاركة العديد من مجاهدي المدينة)، في: مجلة أول نوفمبر (الجزائر)، فيفري 1988، العددان 88 و89.
- نور عبد القادر (إشراف)، حوار حول الثورة، الجزء 2، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام، الجزائر، 1986.
- سعداوي (مصطفى)، المنظمة الخاصة ودورها في الاعداد لثورة نوفمبر 1954، دار الأوراق الزرقاء الدولية، الجزائر، 2009، 531 ص.
- فانون (فرانز)، معذبو الأرض، تر السيدة منور، موفر للنشر، الجزائر، 1990، 290 ص.
- قداش (محفوظ)، وتحررت الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2011، 308 ص.
- قديد (محمد)، الرد الوافي على مذكرات كافي، دار هومه، الجزائر، 2001، 104 ص.
- قليل (عمار)، ملحمة الجزائر الجديدة، 3 أجزاء، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1991.
- شرف الدين أحمد رضوان وآخرون، اصلاحات ضد الثورة الجزائرية بين 1954-1962: مدينتا الجزائر وتقرت نموذجا، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوا نوفمبر 1954، الجزائر، 2016.

- شتوان (نظيرة)، 2008، الثورة التحريرية: 1954-1962 الولاية الرابعة نموذجاً، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- الشيخ (سليمان)، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين، دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، تر: محمد حافظ الجمالي، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2003، 606 ص.
- تقية (محمد)، الثورة الجزائرية: المصدر الرمز المأل، تر. عبد السلام عزيزي، دار القصة، الجزائر، 2010، 764 ص.
- ب- باللغة الأجنبية:

- Adjoud (Rachid), **le dernier témoin**, 2012, Casbah-éditions, Alger, 278p.
- Ageron (Charles-Robert) (Dir), 1997, La guerre d'Algérie et les Algériens, Ed. A. Colin, Paris.
- Amokrane (Abdelhafid), 1998, **Mémoire de combat**, Ed Dar El-Oumma, Alger, 1^{ère} éd.
- Attouni (Djoudi), 2006, **Le colonel Amirouche**, Tome 2, Ed Rym Attouni, 1^{ère} éd, Sidi Aich, Algérie, 413 p.
- Azouaoui (Amar), 2003, **Jumelles : le déluge en Kabylie**, Ed EL-AMEL, T.O. Algérie, 310p.
- BELHOCINE, Mabrouk, 2000, **Le courrier Alger-Le Caire, 1954-1956 et le congrès de la Soummam dans la Révolution**, Casbah Editions, Alger.
- Bensalem (Djamel-Eddine), 1985, **Voyez nos armes voyez nos medecins**, ENAL, Alger.
- Benyahia (Mohammed), 1993, **La conjuration au pouvoir : récit d'un maquisard de l'ALN**, Ed ENAP, Alger, 223 p.
- Boudiaf Mohammed, 1974, «La préparation du 1^{er} novembre 1954», in **EL Djarida**, N° 15 nov.-dec. 1974.
- Bourdieu Pierre et Sayad Abdelmalek, 1964, **Le déracinement, la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie**, Les Editions Minuit, Paris.
- Chikh (Slimane), 1998, **L'Algérien en armes ou le temps des certitudes**, Ed Casbah, Alger.
- Dahmani (Mohammed) et autres, 1993, **Tizi-Ouzou: Fondation, croissance et développement**, Ed Aurassi (T.O), 396 p.
- Fanon (Frantz), **l'an 5 de la révolution algérienne**, 2012, Ed. Talantikit, Béjaia, 167 p.
- Gentari (Mohammed), 1994, **Organisation politico-administrative et militaire de la révolution Algérienne 1954-1962**, O.P.U., Alger, 2Vol, (558, 950 p).

- Hannache (Ahmed), 1990, **La longue marche de l'Algérie combattante 1830-1962**, ed Dahlab, Alger, 396 p.
- Harbi (Mohammed), 1993, **FLN : Mirage et réalité : des origine à la prise du pouvoir 1945-1962**, ed. NAQD/ENAL, Alger 443p.
- Harbi (Mohammed), 1994, **L'Algérie et son destin : croyants ou citoyens**, ed M.A, Alger.
- Harbi (Mohammed), 1998, **1954 la guerre commence en Algérien**, 3 éd, Editions Complexe, Bruxelles, 209 p.
- Harbi (Mohammed) et Meynier (Gilbert), 2004, **Le FLN Document et histoire : 1954-1962**, Ed Casbah, Alger, 896 p.
- Kechida (Aissa), 2001, **Les architectes de la révolution**, Ed Chihab, Alger, 218 p.
- Kadache Mahfoud, 1981, **Histoire du nationalisme Algérien 1919-1951**, T1, SNED, Alger.
- Lacheraf (Mustapha), 1978, **Algérie : nation et société**, Ed ENAL, 2° éd., 348 p.
- Le Mire Henri, 1982, **Histoire militaire de la guerre d'Algérie**, Ed. Albin Michel, Paris.
- Merdaci (Abdelmadjid), 2004, «Constantine-1954 : entre l'insurrection et la dissidence», in Harbi (Mohammed) et Stora (Benjamin) (Dir), **La guerre d'Algérie 1954-1962. La fin de l'amnésie**, Chihab éditions, Batna, Algérie, p-p : 187-196.
- Mekacher (Salah), 2008, **Les Récits de la mémoire : Tizi-Ouzou le destin d'une ville et de sa région**, Ed El Amel, Tizi-Ouzou, Algérie, 351p.
- Meynier (Gilbert), 2003, **histoire intérieur du F.L.N. 1954-1962**, Ed Casbah, Alger, 812 p.
- Nouchi (A) et autres, 1983, **Système urbain et développement au Maghreb**, Ed. OPU, Alger, 349 p.
- Pierre Bourdieu et Abdelmalek Sayad, 1964, **Le déracinement, la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie**, Les Editions Minuit, Paris, 227 p.
- Sari (Djilali), 1987, **huit jours de la bataille d'Alger**, Ed. ENAL, Alger, 141 p.
- Mohammed Tegui, 1988, **L'Algérie en guerre**, OPU, Alger.
- Zamoum (Ali), 1993, **Tamurt Imazighen : Mémoire dun survivant 1940-1962**, ed Rahma, Alger, 339 p.